حين رَحلْت

رواية

سهام مرضي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

حين رَحلْت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0224-8

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

الخَيْباتُ لا تُهدى!

لا أدري مـــن أيـــن أبدا، هل من السّاعةِ التي سقطتُ فيها اجتماعيّاً، أم من اللحظةِ التي سقطت فيها في حُبّك!

لازلتُ أكتب لك كلّ يوم رسائل لن تصِل إليك، يُمكنك أن تغضب منّي لأنّك لن تتخيّل أبدا أن في داخلي لكَ كلُّ هذا الجـــنون وأن رحيلك لم يترُك سوى فجوة أكبر من أن تردمها جبال العا لم!

أنا هُنا كما كُنّا قبل ثلاثِ سنوات، أسرقُ الوقت لأجلك وأخون بدرجة حقيرة تكفي لأن تُحبّني

أنا التّي اتّخذتُ جمالي ورجالَ الأرضِ سُلّماً إليك ومازلتُ أصعد!.

حسناً سأخبرك بأنّ الحبّ وكلماته وصروفهِ ولياليهِ عبرت علـــيّ مراراً وتكراراً فليس من السّهلِ أن تسقط في هذا المجتمعِ المأفـــونِ وتبقـــى طاهـــراً إنه يُقنعك بكونِك مُجرّدُ بقايا جشاءٍ استكرهوا العبورَ عليهِ و لم يرحموهُ من تقزّزهم فانتفضَ ليثبت لهم ذلك.

أقـــولُ بأني لطالما كنتُ المحبوبة التي يُغدقُ عليها الآخرون عبارات الحبّ ولا أقصدُ بالأخرين الرجال فأنا شبهُ مثيرة لنصفِ النساء ومازال يُعجبني اللعب بأعصابهنّ والتلذّذُ بحسراتهنّ

كــــنتُ أتعاملُ معَ كلّ هذا بثلاثةِ وجوه: إما الشّفقةُ، وإما الساديةُ، وإما الاقتناع ومبادلة المشاعر الجميلة، الآن أكتب لك وأنا محتاجةٌ إلى طوفانٍ من الشّفقة يُطفئُ لهيب الجوى عليك.

مُشكلتُك أنّك لا تُصدّق، لا تتخيّل، لا تتوقّع، وهذهِ كُلّها تـــردمني رُكاماً من الأشواق بجانبِ صورتك على شاشةِ هاتفي المحمول ورقمٍ لم يعُد في الخدمة أصِرّ - جنوناً - على الاتصال بهِ وأظـــلّ أســـتمع إلى التسجيلِ الذي يُخبرنُي أن الهاتف المطلوب مفصولٌ عن الخدمة، وعن الحظّ أيضاً!

إنّهُ اليأس الذي أستلذّ بتذوقّه منكَ أيضاً.

أن أبحـــث عنك في جسدٍ وروح تملُكهما ثُمّ لا أجِدُك أيُّ مُهملٍ يتركُ أملاكهُ نهباً للشّوارعِ المُختلسَةِ هُنا!.

هل تدري..

الذين توارَوا خلفَ بابِ الغيابِ وسلسلوهُ بالأقفالِ ورحلوا أكثرُ رفقاً بنا من أولِئك الذين تركوهُ موارباً على كلّ احتمالاتِ الصّبّ المؤمّلِ بالسّحبِ مُزناً وبالشّكِ يقيناً.

أنْ تـــرحل هكـــذا كمـــزحةٍ سخيفةٍ، وتُحمّلني وزر هذهِ الأشواق فأنتَ أقسى ممّا تتوقّعُ بكثير

سَـــأخبُرك بـــأني مـــنذُ وقتٍ طويلٍ توقّفت عن التّمسّك بقـــناعاتي وتركتها نهباً للظروف ولَكِّ ففي الوقت الذي زمّلني المُجـــتمع بخطيئةٍ لم أقربها واستعصمت، تركته ليهنأ بـــي معك خطيئةً بكلّ ايمانٍ!

الوقتُ يا "عبدالله" أتُراهُ يبطئ هُنا في شوارعِ مدننا المكفهّرة إلاّ من الغُبارِ ونظراتِ الريبة أشعُر بهِ يكادُ يقتلني، لا زلتُ أذكر كم كان سريعا كعيدٍ بِجوارك.

وبمناسبة ذكر العيد نحنُ على مشارفِ عيدِ رأسِ السّنة الذي ربّمـــا ستقضي ليلتهُ مع إحدى النساء اللاتي ستتفاجأ في الصّباح أنك تقبعُ بجانبها وستلعنُ الشّراب وتمضي.

وأنـــا هُنا في شُرفةِ شقّتي المُطلّةِ على شارع فلسطين أكتبُ لـــك عن ماذا يُمكن أن يحدث من تغيير للعام الجديد، النّاسُ هُنا لازالـــوا حمقى "حمقى بالملايين" يسندون ظهر الفسادِ ويلعنونه، ويقـــضون نهارهم في الثّرثرةِ ولياليهم في مُعاقرةِ زوجاتهم. كلّهم يعتقدون أن ما يعتقدونه صواب.

مُخيفٌ هوَ وضعُ الوطن الآن..

جميعُـــنا مأزومـــون نحتقنُ بالتّفاصيلِ فلا نُخرِجُ سوى تفاصـــيلاً أكثـــرتفوحُ منها روائِحُ الغباءِ والخرافةِ والسّذاجة، تخـــيّل معـــي جداراً مُهشّماً يتصدّ عُ من أماكن كثيرة فيأتي المطمئـــنون وحـــتى المُرجفون لتغطيتهِ بطبقة هشّةٍ من الوهمِ والـــتخويفِ والتشتيت فنعتقدُ بأن ذلك الصّدعٍ رُدم مع أن الحقيقة المُخيفة تقولُ بأن وقت انهيار الجدار المليءِ بنا، وبكلّ حمقنا، وجهلنا، وفرقتنا، ودوغمائيتنا، سيقترب أكثر وسيقتلنا قربنا منهُ.

لا أذكـــر المرة الأولى التي استخدمت فيها الإنترنت لكنني

أذكـــر حين أخبرتني بأنه عليّ أن انتبه إلى عيني وصفاء ذهني منه حين أخبرتك أني بتُّ مدمنةً عليه،

وهنا أيضا لم تكن تدري أنه الفضاءُ الوحيد في سجنٍ كبير يبدأ بأغلالِ قريتي وينتهي بأغلالِ بريمان!

صديقي الشيعي حسين شاعرٌ أنيق يضعُ صورة للحسين في نافذتـــه ببرنامج المحادثة ويتحدثُ معي عن رمزية العذاب والألم وأنها تجعلُك دائم الإحساس بالآخرين، دائم الحياة، فأردّ عليهِ بأن طقوســـهم في التعبير عن ذلك موغلةٌ في الخرافة وتقديس البشر وهذا منافٍ لحالة الوعي فيرسل لي ابتسامة ويقول وأنتم يا "ريم" ماذا تفعلون وأنتم ترمون حجارة على حجر فأصمت لبرهةٍ وأنا أقرأ له قصيدة في النثر لا يتقنها أحد أكثر منه وأسأله هل نستطيع أن نحبّ شخصا يسمّي المبادئ قناعات يمكننا دائما تخطيها ويردّ ممازحاً "ومتى كان الحبّ استطاعة إنّهُ نوعٌ من القهر!"

أمـــام شاشـــةِ الحاسوب قضيتُ أكثر من ست سنوات لا أفارقه في اليوم إلا نادرا فمنذُ وجدتُ نفسي مُرغمة على الزواج بـــرجل يُجاوزُ الستين يرحمني من غول العنوسة الذي اقترب أو كاد لأن جريمة ارتكبتها حين كنتُ في الثامنة عشرة من عمري لم تكن خاضعة للغُفران ولا النسيان وأصبحت كالوصمةِ تسبقُ اسمـــي وتعريفي عند الآخرين. ، معَ أبوين كهلين وذكرى أخوة عاملوني كنكرة منذُ أن غامرت بالركوب في سيارةِ "عزوز" أخو صـــديقتي في المرحلة الثانوية وذهابا إلى منـــزله الذي راودني فيهِ

فهربت وأنا التي كنتُ اعتقد أن الحبّ فقط أن أجلس بجانبه أو أن أقبله على خدّه!

هــــربتُ مرعوبةً أتلمّس طريقاً لكنني كنت قد ابتعدت بما يكفــــي لفضحِ أمري عدت إلى المنــــزل من قسم الشرطة وبعد اجـــــراء فحـــــوص طبية تثبت براءتي وطيشي لكنّها كانت بداية سقوطي إلى الأبد

أبـــــو حامد رجل كريم وفاضل كان صديقا وفياً لأبـــــي مـــــنذ شـــــباهما وحـــــين سافر للاستقرار في جدة بعد اصابته بسرطان البروستاتا وترمله مكث سنة ثم عاد إلى قريتنا البائسة في بـــــريدة طالبا يدي لأقوم على خدمته بعد ان هجره أولاده في بيت كبير.

مـــــنذُ أن وجدت نفسي كصدقة مُنحت بلا منّة من ابـــــي لصديقه المريض انكببت على الانترنت واستفدت من شهاداتي في البرمجة للعمل كسكرتيرة بجامعة الملك عبد العزيز.

إنّها جدة كما عرفتُها من ستٍّ خَلين مفتوحةً على الجميعِ ترمقُ كلّ محدّقٍ إليها بغمزة تغريهِ بها كامرأةٍ لَعوب، الجميلُ فيها أنّهـــــا تتنفّس تكَادُ تشعُرُ بزفرةِ البَحرِ حين تُطيلُ المكوثَ أمامهُ. أهلُهـــــا قريبون إلى البساطة لكنّهم بتأثيرها يملكون روح التّحضُّرِ كمـــــا تملكـــــهُ هـــــيّ، فيها رغم البونِ الشّاسع بين الحمراء وبين الـــــبغدادية إلاّ أنّـــــك تشعر بأنهما قريبان من بعضٍ على الصّعيد الإنـــــساني البـــــيوتُ الفارهـــــةُ هُنا والتي تقطنُ صديقتي "سعاد

حسني" - وهذا اسمُها الأول مُركّباً - احداها لاتبدو هذه البيوتُ كأصنامٍ مبالغةٍ في التّعالي والغرور ونظرة الاحتقارِ حتّى للعابرين من الشّارعِ أمامها هكذا كانت قصور العليّا والتحلية حين عبرنا أنـــا وأنتَ من أمامها هل تذكُر!. تعرّفتُ على سعاد في احدى المنـــتدياتِ التي تتعصّب للفنان "محمد عبده" كانت تكتب عن أغانيهِ بإحساس عاشق لا يملُك تجاه من يحبُّ أيةَ قدرة على النقد فهـــو كله جميل وهو روح جدة رغم كونه من الجنوبِ إلا أن جدة كانت تُحبّهُ أكثر فبادلها حبّها بصوته.

يبدو أهلُ جدة حقيقيُّون حتّى في عالمٍ افتراضيّ فقد وجدتُ ســـعاد حينَ التقينا في مقهى "فورتيغو" كما هيّ لم تزيّف نفسها شـــابةٌ من الطبقة المخمليةِ ترتدي أغلى الماركات وتمُلك ابتسامةً مُدهشة وقواماً ممتلئاً بعض الشيءِ وابتسامةٌ لا ينافسها عليها أحد تحدثـــنا كـــثيراً عـــن حفلات أبـــي نورة وغنينا "يا مستجيب للداعـــي" كـــان صوتُها ساحراً وأخبرتني أنها تقدمت لإحدى المسابقات الغنائية لكنّها لم تنجح فلم أستغرب فأهل جدة قليلو الحـــظّ حـــين يتعلّقُ الأمرُ بمسابقةٍ تموُّلُها الوسطى كانت سُعاد صـــوفيّة بامتـــياز تحضرُ إلى منـــزلها كلّ اثنين صديقاتها لإقامة طقـــوسٍ يبدو اللهُ فيها كصديقٍ حميم أو معشوقٍ لا يملّ التوسُّل والغناء واتهامُ الذاتِ أمامهُ بالتقصير.

سماهـــا والدها المتوفى سعاد حسني تيمناً بسندريلا الشاشة العربية و لم تخيّب أمله فقد كانت قريبة إلى أن تكونَ سندريلا.

تطوراتُ لقاءاتي مع سعاد والتحاقي بالنادي الرياضي لنكون قريبتين جعلتها تبدو أمامي ككتاب مفتوح فهمتُ كثيراً أنها لا تميلُ سوى إلى النساء حين طلبت مني تقبيلها قبلةً طويلة في فمها تشعُرُ معها بطعمِ الحياة كما أخبرتني.

مـــضَى على آخر قبلةٍ قبّلتُك إياها ثلاثُ سنوات إنّها فترةٌ كافيةٌ لتغريني امرأة كسعاد ولتنهشني الوحدةُ بعدك.

الآخرون يا عبدالله لم يكونوا جحيماً فقط لقد كانوا دهليزاً طويلاً من الاختناق معي أنا بالذّات كانت بريدةُ وجهاً مُتخشّباً كوجه عجوزٍ مُصابة بشللٍ رباعيّ وتنتظرُ الموت أمام نافذة مُغلقة لَم تترُك بروحي أيّ شيءٍ منها فهيَ مدينةٌ لا لحنٌ فيها ولا غناء ولا نساء فكيفَ احتملت نفسها؟!

أذكـــرُ أن حـــياتي فيها والتي كانت موصومةً بالخطيئة كانـــت هـــرباً باتجـــاه آخرِ النّفق، وادماني للهربِ وعُجالةُ خطـــواتي فـــوّتت علـــيّ الإحساس بالمكان أو حتى الوجوه، والأصـــواتِ، والروائح كانَ الشّتاءُ هو الوحيد الذي يوقظني على حقيقةِ مرورِ الزمن فأتدثّرُ وأنا أقراؤك في الصحيفة نوراً يبعثُ بروحي الأمل هل تذكُر حين أخبرتني أنّ حياتنا سلسلةٌ مـــن الهـــرب وأنـــنا لا نعرفُ أنفسنا جيّداً لأننا دُجّنا على الـــتخويفِ والوعـــيد والأبواب المؤصدة والذرائعِ المسدودة فَخرجنا من أنفسنا نبحثُ عن ضحايا نُشبعهم لطماً واختلاقِ أعداءٍ ومؤامرات وتحزُّبات.

أن أقـــضي خمسةً وعشرين عاماً في بريدة ثمّ لا أتذكرُ منها شـــيئاً، لا أحنُّ لشيءٍ، سوى السّخرية من حجم سخافتي حين كـــنتُ ألقي محاضرات للسيدات الكبيرات عن أهمية الحجاب في احـــدى الجوامـــع الذي كنت احفظ فيه القرآن وأنا مازلتُ في السادسةِ عشرة من عمري فهناك يمكنك أن تكون خطيبا كلما امتلكت ملامح الصلاح وحفظت شيئا من القران وصليت امام الناس بخشوع!.

دعـــني أخبرك عن ايقاظك لأحلامي ووجودي من جديد كـــنتُ في رأسِ الهامش وكنتَ أنت في رأسِ الواقع تكتبُ عن الإنسان وحقوقه وتنميته، معك كنتُ أطاردُ السطورَ كما كنتُ أطارد العبور من النفق، كنتُ أحتاجُك، أعطيتني شُعلةً وأشرت لي إلى الطريقِ أدمنتُ الكتابة من وحيك وأصبحت أنتَ كقدّاسٍ أزورهُ كلّ اسبوعٍ للتزوّدِ من الروحِ والحياة والحقيقة.

لا أنـــسى استغرابك أن أكون حافظةً لسطور مما تكتبه في مقالاتـــك حـــين التقيتُك للمرةِ الأولى لم تكن بالنسبة لي رجلا عاديـــا كـــنت رجلاً لا يتكرر ولا يُمكن تقليده أن أحبّك لهذه الدرجة من سطورك ثمّ أتيّمُ بك من عينيك فهذا يعني أن قلبـــي ان غضب منك أعادك إليهِ عقلي فمن أين سأنفذُ منك؟!

انـــتقلتُ إلى جدة وأنا أحملك في داخلي كجريمة أخافُ أن يطّلع عليها الناس، أخبئُك عن الوجوه والعسكر والمطر، أبالغُ في التحديقِ إلى تفاصيلك وأحتلمُ بك كلَّ ليله!.

منــــزلُ أبـــــي حامد كبيرٌ يتيح لي العزلة بعد أن أنهي أموره وخدمـــته وأبدأُ في تصفّح الإنترنت لساعات طويلة - قبيل أن الـــتحق بوظيفتي - كان الليلُ كلّه بين أقبيةِ العالم الافتراضي في بـــدايات تكـــوين رأي يشبهُ الأحاديث التي كانت تدار خلف الأبواب وبصوتٍ غيرِ مسموع، بدأ الناسُ يتحدثون ويقتربون من الحقـــيقة حين يطمئنون أنهم خلف الأقنعة، خلقت لنا الساحات نـــوعاً جديـــدا مـــن الحياة ومجهراً يقترب من الدقة على نوع الـــصراعات الدينية والمذهبية والاجتماعية هنا للمرةِ الأولى نقرأ نقـــدا مباشراً لأنواع السلطات التي تتنازع المجتمع وللمرة الأولى نستطيع تصور حجم الاختناق الذي كان يعانيهِ الشارع ويتنفس بشكلٍ افتراضيّ على الرغم من أنه لم يتجاوز كونه عملية تفريغِ شحناتٍ حتى اليوم لكنه قللّ بالتأكيد من حالةِ الاحتقان والتأزّم التي كنا نعانيها بصمت ونكتفي بالتحديق اللانهائي!.

** ** **

أعرفُ أنهُ في الحبّ فقط تغدو الحماقةُ تصرّفاً في غايةِ العقلِ فلـــولاها ماكـــنتُ عرفتُك واقتربت منك إلى هذا الحدّ لا زلتُ أذكر أولّ اتصالٍ بك حين تحسّرت بشكل غبـــي أنّك متزوج!.

حدثـــتني عـــن أنّ الوطن باتَ متعِباً وأنك بدأت تسأمُ من ســـلبيته الـــتي بدلا من أن تقل فإنها تتزايد سألتني ما هو الوطن فأخـــبرتُك بأنّه الأشخاص الذين نحبّهم كنت أراك وطني، كنتُ

أقصدُك أما أنت فلم تنتبه لذلك وصحّحت لي خطئي بكّل حزم: "لا الــوطنُ هــو الأرض" الــتي تمــنّ علينا بالوجودِ والدفءِ والذكريات مهما كانت، كنتَ صادقاً وكنتُ صادقةً أيضاً.

بطــول عــاديٍّ ونحول وعينينِ جريئتينِ وفمٍ صغير ووجهٍ متسائل لَم تكن أوسم الرجالِ على الإطلاق لكنّك كنت بالنسبةِ لي كل ما يمكن أن أطلق عليهِ تسمية رجل، كنتَ كالمثالِ وهم فقــط يحاولون احتذاءَه، كنتَ الوحيدُ الذي يستطيع تنبيهي إلى كوني نقيضتُه وكونهِ مُكمّلي.

حــين زرتُ الــرّياض بعدَ رحيلِك وجدتُها مَوشُومةً بك، حاراتُهــا حــيثُ منــزلُك مليئةٌ بكَ، تكادُ تتحدث نيابةً عني يكسوها حزنٌ مريب، وكيتيمٍ أخبروهُ بعد سنواتٍ انتظارٍ لّما بلغ الحلُــم أنــه مجردُ لقيط ولا عناوين لهُ، كانَ شرودي محدّقةً في الــشّارعِ المحــاذي لــنافذتكَ، ويكــادُ قلبــي أن يئنّ بصوتٍ مــسموع، وعيــناي تفترُّ عن دمعةٍ تُكسبُ الصّورةً قليلاً من الشّجن، وكثيراً من الألم.

أذكرُ المرة الأولى التي التقيتُك فيها في الرياض، كنتُ قدمتُ لــزيارة أقــارب لأبــي حامد كانَ الشّتاء يضربُ بأطنابه على شــوارعها وكــبداية شعرتُ بها منافقةً كُبرى تُطفئُ أنوارها في العاشــرةِ وتسهرُ الليلَ كلّه في السِّر، تضايقتُ جداً حين أخبرني السّائقُ أنه لا يوجد في هذهِ الساعة مطعم لتناول العشاء وأن عليّ الانتظار بالجوع حتى صباحِ الغد.

في شوارعها تُشاهدُ جفافاً يكادُ يزرعُ الشّوك في عينيك، تـــسرقُ أكـــبر قدرٍ ممكنٍ من كهرباءِ الوطنِ لتواريَ سوءاتها الكثيرة، عند الإشارة تشاهدُ أنواع السياراتِ الفارهةِ واللحى والسّكوت تكادُ الوجوهُ أن تتحدّثَ من صِمتها، حين تكون امرأة هنا وتركب سيارة يقودها سائقٌ في هذه الساعةِ المتأخرة فستحتقرك الرياضُ كلها، ستشكُّ بك، وسترتاب منك فتنغلقُ عليكَ أكثر.

حـــينَ تـــنقّلتُ في أزقّتها الخلفية معَ موضي" البوية "كما تـــسمي نفسها وعرفت كيف تحتالُ المدينة على كبتها وأجهزة الرقابةِ فيها ومثاليتها المُدّعاة، أيقنتُ تماماً بأنها مجرّد عاهرةٍ ترتدي عباءةً على الرأسِ وقفازين وتصلّي وهيَ على جنابة!.

أذكُـــرُ أنّـــني سألتُك كيف تحتملُ المكوث فيها إنّها مدينةٌ خانقة، يؤخَذُ فيها زوجان إلى قسمِ الشرطة الدينية لأنهما مثيرانِ للـــشكوك، لا مكانَ فيها للحبّ، النّاسُ فيها مُرتابون من المرأةِ أكثر من سلاحٍ نووي، ويوجدُ فيها أكبر عدد من مدن الألعاب النـــسائية والمحلاتِ النسائية، وكلّ ما يمكنُ بهِ عزلُها عن الحياة الحقيقـــية، تمـــشي في احـــدى شـــوارعها بعيد المغرب فتسمع ميكـــرفونات رجال الحسبة تأمرك بالصلاة بعبارات تُشكّكُ في ضميرك لا أن تُذكرك بها، ويقتحم رجلٌ يرتدي مشلحاً ويملك لحـــية كـــثةً المقهى الذي كنت أنتظرُ بهِ موضي في برج المملكة ويطلب من طفلٍ يرافقُ أخواتهُ أن قُم للصلاة مذكراً إياه أنه إن

لم يفعـــل أُجبر على ذلك، ويلتفت إلى أخواته فيأمرهنّ بتغطية وجوههن والواضح أنهن من جنسية عربية ولسن سعوديات.

خانقـــةٌ هـــي الـــرياضُ يـــا عبدالله تتنازعكم كل أنواع السلطات، رياضُكم يملأها الشّوكُ ويكادُ ينتصرُ على رقيقِ الورد، قلـــتُ لك حين التقيتكُ أنّني أشعرُ بالعار هُنا.. مدينةٌ تستكثرني، وتخفـــيني باستمرارٍ هي حتماً مدينةٌ مخيفة، كنت تضحك... ياه هل سبقَ أنْ أخبرتُكَ أنّ لديك ضحكةٌ بإمكانها أن تبعث الحياةَ في صحراءِ الربعِ الخالي؟! بإمكانها أن تنقلني كنغمة موسيقيةٍ إلى علوٍّ سماويٍّ مُحلّق فأتمنى أن تضحك أكثر، أن أعيشَ هذهِ اللحظةَ فـــيكَ أكثـــر، لاوجود لموسيقى في مقاهي الرياض لذلِك كنتَ بضحكتك موسيقاي.

هُـــناكَ حيثُ تنقلنا بين حواريها قلتُ لك بأنها مدينةٌ ترفُع سعرَ المزايين من الإبلِ وتقيمُ لها المهرجانات وتدفعُ بقيمةِ الإنسانِ إلى الحـــضيضِ كأرخصِ من عليها، صمتّ كثيراً وكنت أعرفُ أنّـــك تتألّم، نقلت الحديث إلى الموسيقى، كنتَ تحبّ فيروز ومنك أحببتها، اخترت بعد أن حيّرك الاختيار أغنيتها أسامينا لنـــسمعها ونغنيها، وسألتني عن بريدة مدينةُ التناقُضاتِ والماء البارد!

أجبـــتُك بأنّ احدى حكايات اسمها تقولُ بأنها سميت على اســـمِ جارية تُدعى بريدة بنت هذال باعها أسيادها لمالك المدينة آنـــذاك فـــسميت باسمها ويا للرمزية هنا! امرأة مباعة منذُ ذلك

الحين وحتى الآن لم أكن سوى مباعةٍ لأبي حامد أنا أيضاً، كانت الوحيدة التي دخلها تعليم البنات بضغط قوات الأمن، وكانت التي أخرجت نصف رجالِ الدين في البلد ونصف رجال التنوير أيضاً!

لديها ما تفخرُ به على الأقل فهي تسرقُ مع الرياضِ جيب الوطن، ومنابرهُ، وصوته، وقضاياه، لا الحقّ إلا ماتريانه، ولا الباطلُ إلا ما تقررانه، ولا عزاء للأطراف.

تحدّثنا في ذلك المقهى عن كلّ شيءٍ عداك أنت كنتُ أريد اخبارك كم أصبحت معياراً لكلّ شيءٍ في حياتي وأنك لو أخبرتني في لحظةٍ أن الكون كلّهُ سينتهي فلن أكترثَ في تلكَ اللحظةِ سوى لشيءٍ واحد: هوَ كيفَ سأحُبُّك أكثر؟!.

الشتاءُ دائماً لوثَةُ احتياج، المرتجفون برداً لا ينامون إلا بالكثير من الدموع، هو حالةٌ تذكّرُك بأنك لست دافئاً ولا كاملاً بما فيهِ الكفاية، حالةٌ يتضافر معها الضبابُ ليصنع لك صورة من بعثرتك الداخلية، من شتاتك وضعفك، من كل محاولات تجاهل من تحب، في الشتاء تجدك مرغما ولو على تذكرهِ بشده، الذكرياتُ التي يرافقها المطر غيرُ قابلةٍ للغسيلِ من الذاكرة، وحدها تبقى عالقةٌ في الوجدان، وحدها تُحضِرُ صورتك مبللاً فاتحاً ذراعيك للحياة لا تعلم الآن أيّ حزنٍ يبعثُ المطر، حين لا يكون سوى كارثةً هنا في جدة، المطر يُغرقها في ساعات قليلة

أن تقف دافعاً لثمن الفساد مرتجفاً بين قويزة وحي الجامعة وغلــيل، فأنــت لــست سوى كائن هلاميّ أمام هذا السؤال الصّعب، لماذا نحن الذين ندفع الثمن؟

كانــتِ السنةُ الثانية لك في لندن حين عصفت بنا سيول جـــدة ليلــتها مشيتُ مع سائقي لشارعين على الأقدام وتركنا السيارة للسيل، كان الزحامُ والوجوم وأصوات صفارات الإنذار وأبــواق الـــدفاع المدني وضجيج الناسِ يكشف كم أصبحت العروسُ عجوزاً ضحكت علينا بأرتال من المساحيق، حين غسل وجههـــا كانـــت أبـــشع ممـــا تخيلنا، آلاف الحكايات المؤلمة والتـــضحيات والبـــيوت المغـــسولة بالموت والغرق، وكثير من الدعوات والصلوات على من أهمل وسرق ولفّق المشاريع.

في تلـــك الليلة الأليمة كتبت لك "الفساد طعمه مرّ، وثمنهُ بـــاهظٌ جـــدا، ولا أحد سيأخذ حقّ الأرواح التي زهقت سوى ســـيل جديد يغسل ما مضى بحكايات جديدة" وهذا ما يحصلُ الآن إنها تغرقُ من جديد كلعنةٍ غيرِ قابلةٍ للتفكيك، وكأ لمٍ علينا تجـــرُّعهُ ولـــيذهب الضحايا إلى الجحيم، كان عليهم أن يحاذروا أكثر، أنْ لا يعيشوا في جدة أبداً، أو أن يختاروا قصرا محصّنا ضد الكـــوارث كالتي تحتكر مساحة من الكورنيش، ان لم يستطيعوا فهو ذنبهم وحدهم، ليموتوا اذا!.

المطـــرُ في كلّ العالمِ يعني لحظة عناق لذيذة، طفلةٌ ترقصُ بفـــرح، ذكـــرياتٌ حبـــيبٍ عانقناهُ تحته، أرضٌ تنتشي فتغدو

كحسناءِ للتو خرجت من حوضِ السّباحة، أما نحنُ فالمطرُ عندنا أصـــبح نـــوعاً من الموت، ركاماً من الصّراخِ والجُثث، وجودُ سحابةٍ في السّماء، تعني تهديداً للحياة، للوجود، أصبح المطرُ في جـــدةٍ مأساةٌ، تفضّلُ الجفاف من دونها، نحنُ هنا أصبحنا ندعو عكس الوطن، اللهم حوالينا ولا علينا.

الـــصّمتُ هـــنا حالُة ضجيجٍ صاخب، نصنعُ لنا حيواتٍ أخرى، ونعيشُها مع أشخاصٍ نفترضُ وجودهم، وصفاتهم، حين يقتـــربون مـــن كـــونهم موجودون فعلاً تنقطع نصف المتعة في تـــشكيلهم وفقـــاً لولعنا بالتخيّل، هذهِ ميزةُ الخيالِ والتحليقِ في سمـــاواتِ الـــتّأمّلِ الـــصّامت، حالةٌ تتيح لك أن تكون فاسقاً، وفاجراً، وقديساً، ومجرماً، وحمامة سلامٍ في ذاتِ الوقت، دون أن تلاحظُك عيون الريبة، ودون أن يكفُّرك الآخرون، هذا ما يتيحه عالم الإنترنت الواسع.

أرأيـــتَ يـــا "عبدالله" أصبحنا كائنات تتفنّن في استغلالِ الـــسكوت، والأبـــواب المغلقة، والدروب المسيجةِ بالأشواك، انتصرنا على السّكوت بطاقةِ الخيالِ والافتراض، صنعنا منهُ كائناً مُحـــرّماً، وصـــنعنا مُتعُنا الخاصّة بعد دخولِ كلّ هذه التحديث الشّكليّ على حياتنا، وتحريمه على عقولنا، أصبحنا نُشبهُ قصيدة النثـــر، لـــنا ألـــف وجه، وألف تأويل، ورغم كثرتنا وتقافزنا كالكلمـــات بـــلا هدفٍ، مثلها نحنُ ما زالَ لم يعترف بنا أحد بصوتٍ مرتفع، لم يأخذنا أحدٌ على محملِ الجد، وتبعثرنا يدفعنا

دائما للهرب، إلى أنواع الحيوات التي يزينها لنا بؤسنا، لدينا كلُّ أنـــواع الخطايـــا، وكــــلّ أنواع المواعظ، ومازلنا ندّعي الخيرية والاصطفاء على شعوب العالم!.

اعتدنا على سرقة كلّ شيءٍ، واختلاس كلّ مُتعة، فاحترفنا هـــذا الـــنوعُ من الحياة وأصبحت لاتغرينا الحقيقة، ولا يُلهمنا الواقع، نسميهِ كلام كبار، ووجع رأس، وزندقة، وتجهيل!.

حـــتى الأوطـــان تبكي حين يرحلُ ساكنوها، هكذا رأيت الوطن بكبرهِ حين رحلت، قلت لي أنّه لا أحد يفهمُك، لا أحدَ يُـــشبهك، كنت أريد أن أقسم لك أنني أصبحت نسخة منك، أنـــني أفهمـــك للدرجة التي أتخلى فيها عن مبادئي من أجلك، لكنّك لم تكن لتصدق، فحتى أنا مازلت لا أصدّقُني، لا أستطيع حـــتى تصور كلّ هذا الحب لك في داخلي وأنه نوعٌ من الإيمان المُطلق اللانهائي.

في ليلة رأسِ السّنة الماضية كتبتُ لك رسالةً الكترونية بعد أن شـــاهدت اســـتمتاعك بأجواءِ لندن وبأمطارها وكيف أنّ الطقس يستطيع أن يكون صديقنا وأن نتحدّث معه بصوتٍ عالٍ فنخـــبره كم هو رائع، قلتُ لك في وطننا وحده لا نملك علاقة طيـــبة مع الطقس، لا نستمتع بشروق الشّمس نسينا لذّة ونكهة جلـــودنا في شمـــسِ الظهيرة، لا أسماء للنجوم، ولأنواع الرياح والمطر، ولا أسماء لتقسيم فصل الشتاء. كما كان يفعل أجدادنا، كانـــوا أكثـــر حظّـــاً منّا في احتضان الحياة، في لمسها، وشمّها،

وتدليلها، وتسمية تفاصيلها، الأرض، والطبيعةُ، والطقس، وحتى الهــواء كـــان قريبا منهم، يلفحهم، يؤثّر بهم، يتحدث معهم، ويـــساعدهم، أما نحن يا "عبدالله" فقد فقدنا صلتنا به، شيءٌ ما كرّسنا في داخل قوقعةٍ معتمة، أحدهم سرقَ منّا الطبيعة، والهواء الطلـــق، وتفاصيل التضاريس، وأبدلنا بصندوق صغيرٍ نعيدُ فيهِ بحثـــنا عن روائح وصور وذكرياتٍ الطفولة، لذلك عنونت لك رســـالتي بــــــ "العالم صندوق صغيرٌ مغلق!" إنه ماقصدته تماماً، أصـــبحنا نفـــتح نافذةً مغلقة من جميع الجوانب لننفذ إلى الحياة، حياةٌ ليست لنا، هنّأتُك بشتاءِ لندن، ورسمتُ صورة لشتاءٍ أتوقُ إلـــيه وعدّلتها بالفوتوشوب، وجعلتُها خلفية لجهاز اللابٍ توب ونمتُ حزينةً ككلّ يوم.

الـــنوافذُ التي فتُحت لنا كانت على علوٍّ شاهقٍ جداً، نورها يـــصلُ إليـــنا حين نفتُحها خِلسةً، لكننا لا نستطيعُ الوصول إلى ذلك النور يتطلّب هذا قفزاً من النوافِذ، ومن يجرؤ على ذلك فهو إما انتحاريٌّ أو حالمٌ بدرجةٍ يصعبُ شفاؤها.

فـــالأحلامُ هُـــنا مرض، انتهاكٌ للواقع، استدرارُ عطفِ الشامتين، وتضييعٌ للعمرِ في الهباء، الحالمون هنا علينا علاجهم، وجودهم بكثرةٍ يُهدّد سُباتنا القانعِ بالسواد، وجودهم يستفزُّ احـــتقارنا لذواتنا، علينا لجمُ خيالاتهم التي سرقت نصيبنا من التفاؤل، علينا نبذهم اجتماعياً ليفوقوا من زحمةِ الأحلام التي لن تتحقق.

"انــتظارُ الحياةِ موت" أذكرُ أنني أخبرتُك بذلك فكيف لو كـــان المنتظرون موتى بالآلاف، الجنينُ في بطنِ أمه يمكث تسعة أشـــهر كميّت، دوران الدم في عروقك لا يكفي لتشعر بالحياة، وأشـــعر بالمرارة لأن واحدا وثلاثين عاماً هي عمري قضيتها في انــتظارِ الحياة، لم أخبرك من قبل أنّ سالم" صديقي الاسماعيليّ افترضَ لي مرة أنّ روحي ستهيم في الآفاق حين أعيش حياة عبثية وأنهـــا ستعودُ في أية حيوان مُحتقر، لا أخفيك وقتها تمنيت أن تعود في أيّ شيء فقط لتحبّك أكثر.

سالم أكثر الشخصيات الافتراضية اثارةً للغرابة والدّهشة معاً حينَ عرفته قبل أربع سنوات من الآن أي قبل سنةٍ من رحيلِك، كـــان بالنـــسبة لي مملكة الجنون العاقل، إنه لا يتوقف عن اثارةِ ســـخريتي ودهشتي في آنٍ معاً، التقينا بالكتابة في أحد المنتديات المعنـــية بالتنويـــر والعقلانية والليبرالية بوجه الخصوص أو هكذا أسمت نفسها لكنّها لم تكن تختلف عنّا كثيراً، مشوّهةٌ وغامضةٌ، ومتداخلةٌ، وانتقائية، هكذا نحن وهكذا فعلنا بكل مذهب وتيار بـــلْ وحتّـــى بالحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان، كان سالم يكتب عن الله كثيراً، ويفسر آيات القران بشكل غريب، بتفاسير لم تخطر لي على بال، وحين اقتربت منه أكثر كان كرجل بعيدٌ عن ماهيّته، لا يتمنى، ولا يغني، ولا يحلم، ولا يركز على تفاصيل الأنـــوثة، ذات مرّة تناقشنا عن الموت، كانت فكرة النهاية هي المـــسيطرة عليه، خوفه منه أو غموض النهاية خلقت منه كائناً

خـــرافياً بامتـــياز، أستطيع تصور حجم الألم حين أنهى انتماءهُ الجنـــسي ليفوز برضا حربهِ مع الخوف، وينطلق نحو كائنٍ يعتقدُ أنه أرقى وبالتالي أقلّ عرضةً لمخاطرِ الفناء!

سألتهُ مرّة إن كان رجلاً أو امرأة قديسةٌ تُخاتلُ رغباتها ليلاً، وتطيلُ المكوث في المحراب فجراً، فأجابني أنه كانَ رجلاً!.

قلت: الآن فهمت يبدو أنّك متحولٌ جنسياً أعرف أنه أمرٌ صعب أن تكون رجلا في داخلك امرأة الكثير من المشاعر تختلطُ عليك، وتتمنى أنك غير موجودٍ أصلاً ربّما هذا هو سبب ضياعِ ايمانك كما قلت لي مرة...

قاطَعَني: أنا رجلٌ مخصّيّ!

صدمني ذلك وبعث في داخلي مَوجةً من التشتتِ والذهول وكتبتُ ببطء..

كيف؟!

هكذا لا وجود لآلة لديّ، أنا فوق الإنسانِ بمرحلة، وقريباً سأصبحُ من الملائكة!

ســالم، أنــتَ تمــزح من فعلَ هذا بِك؟ مَن أحرمَك من انسانيتك؟!

ردّ بإصرار مخيف:

أنا. أنا، أنا

أنتَ من؟!

أنا الذي خصيْتُ نفسي!

فعلـــتُ ذلك من أجلِ الخلود، الإنسان يموت والملائكةُ لا تفعل، أستطيع الآن أن أتصدّى لشهواتي، وأن تتسامى روحي إلى الخلود، شهواتنا هي التي تقتلنا، الشيطان قادر على من يطاردون غرائـــزهم، لا يملـــك طريقا غير أجسادهم، أرواحهم وقلوبهم معزولةٌ عنه، إنه يعبثُ بأرواحهم من بوابةِ الجسد.

أذكـــر أنني بقيتُ مندهشةً من فعلهِ كثيراً، ولا أخفيك لم أصدّقه، افترضت أنه حالمٌ متجاوز للواقع، مريضٌ نفسي، وحين كان يأتي كلّ فترة ليضع مرئياته عنّي ونصائحه لي، ثم يرحل حتى دون القاءِ التحية، كنتُ أترك لهُ سؤالاً معلّقاً كقطٍّ مشنوق: هلْ أنـــتَ موجود؟ أقصد سالم هل أنتَ حقيقي؟ هل تأكل الطعام وترتدي ثوباً وعمامةً وعقال؟ مازلتُ لا أصدّقُك؟ أو بالأحرى مازلتُ أفضّلُ عدَم تصديقِك؟

سأحدّثك أن سالماً يراك خطرٌ عليّ فكلما تعلّقت بك أكثر، تذكـــرّت جسدي أكثر، كان يرى أن الحبّ ضربٌ من البلاء، وأنا أراهُ حياةٌ بدونه لم أكن لأواصِل العيشَ، هلْ تعلم كم عدد المـــراتِ الـــتي أزور فيها مقالتك يومياً، وهل تعلمُ أنني أعلّقُ ما تعتقدهُ، وما تدعو إليهِ كالتمائمِ في قلبـــي ضدّ اليأسِ والحقد.

بـــالأمس كنتُ وسعادُ وريما في أبحر- لم أحدثك عن ريما سأخبرك عنها في رسائلَ قادمه -كنّا نتدرب على قيادة السيارة، كانـــت ريما مدربتنا لأنها قضت معظم حياتها في لبنان، كنّا في غايةِ السعادة، ونحنُ نتندّرُ على مواقف ربما ستحصل حين نقود،

فـــنحن في وطننا حتى الآن كائناتٌ خرساء ليسَ لها صوت، ما زال محرماً علينا الإدلاء بأصواتنا حتى فيما يخصُّنا من قرارات.

الفرقُ كبيرٌ بين آخر حدّ لنا مع الفضاء الخارجي وبين أي مكانٍ خارجهُ، حينَ سافرتُ إلى لبنان في الصّيفِ الفائت، كانَ كأنني وكل من معي على متنِ الطائرة، نقتلعُ من داخلنا وجوهاً مُخبأة، ابتسامات مختلَسَة، كلّما ابتعدنا عنِ الحدود كلّما تحددت معالمهـــا أكثـــر، وهـــو فرقٌ قريب بين مدينة كجدة، وأخرى كالـــرياض، فحتّـــى حينَ تتبرّجُ جدة تبدو جميلة تُقنعنا بملامحها تناســـبها كلُّ التقليعات، وحينَ تُحاولُ الرياضُ التّظاهُر بالفرح، وتجـــبرُ نفسها على التّبرُّج تبدو كأربعينيةٍ تعتمرُ تسريحةَ سبايكي وتلّـــون شـــعرها بثلاثةِ ألوان متنافرة، فالفرحُ يبدو أنه ما عاد يناسبُ هذا البلد، لأنه استهجنهُ سنينا، وحرّمه أخرى، وصادرهُ مـــرّات وحتّـــى البُسطاء هجروا فلكورهم، الفلاحون، والبدو، وســـكّانُ القرى، صفّقوا للذين خطفوا من بينِ أيديهم هويّتهم، وثقافاتهم، وأساطيرهم، وحكاياتهم القديمة، وحين هاجمهم الحزنُ والألم، ضـــاقوا بـــهِ فأدخلوهُ في زوايا نفوسهم، واستزادوا منهُ، فعُجنت بهِ سحناتهم، ولم يجدوا حتّى لحناً عذباً يسكبون فيهِ كلّ هذا الألم.

وفي كـــلّ بلـــد نـــزورهُ لنا صورتنا المكرّرة، كمساجين فُتحت لهم نافذةُ إلى السماء، والحرية، نُحاولُ التّزود بأكبر قدر مـــن الحياة، والناسِ، والصور، والموسيقى، والشوارعِ المفتوحةِ،

والمَسارِحِ والسينما والفنونِ قبلَ أن نعود، فحينَ تتوقّفُ كلماتُنا حَــيرى أمامَ عالمٍ يكفُرُ بنا، وطُرقاتٍ تتنكّرُ لنا، وحانةٍ لا تُمانعُ دخُولنا، وصَّراخَنا، واستنفادِ طاقَاتِنا في الرّقصِ والنّسيانِ، فمُؤكّدٌ أن ندخُل، وطبيعيٌّ أنْ نُدمنَ التّلاشي.

نحنُ يا "عبدالله" سادِرون في الفَقد، مُسرفون في فقداننا يوماً بعــد يــوم، أن تفقد جزءاً قديما لتكتسب آخر جديداً، لتكملهُ بأحــدث منه، لتغيّرهُ لأحسنِ منه فهذا هو معنى أنك تعيش، أما نحــنُ فمتــشبّثون بالماضي، برموزه، وأساطيره، وطريقته، فقدنا ذواتــنا لصالِح الأموات، هل تشعر بهذا؟ كم هو مؤلمٌ أن تعيشَ معقوف الرأسِ إلى الخلفِ كمُعاق!.

أخــافُ أن يــأتي يومٌ ولا نَجدُنا، لا نجدُ ما نفخرُ به، ما نَخافُ عليهِ، ما نُراهن عليه، ما نُناضِلُ من أجله، أحدهم يمتصُّ أرواحنا بعنف، وينفُثنا إلى الخواء.

نحــنُ مُجرّدُ أحلامٍ على حافّةِ الخَرف، أنْ نكونَ حقيقيين لِلَيْلَــتينِ وصــباحٍ تُــولد فيهِ الشّمس كاملةً بلا خجلٍ يُسمى "الشّفق"، نعيشُ سنيناً من الكذبِ من أجلِ لحظةِ صدقٍ وحيدة، قــد نحصّل عليها، وقد لا نوفّق، كم هيَ غايةٌ قتلتها الوسيلة!، وكم ميّتون على قيدِ الحياةِ نحنُ!.

بُعــيد عــيدِ رأس السنةِ بخمسة أيام سيكونُ عيد ميلادي، الذي هو مناسبة مغرضةٌ لتذكيري بكل تفاصيلك، وبؤسي بك.

** ** **

الليلة بعد أن قمت بواجبـــي كأي امرأة مطيعة – تخافُ أن تلعنها الملائكةُ – مع أبـــي حامد كان وقتُ اختلائي بأصدقائي الافتراضـــيين، لكنّك تحضر قبل الجميعِ ولا ترحلُ أبداً، لم تكن يوما سوى الحقيقة الوحيدة في حياتي، بك طردت كلّ أوهامي، وتخلّصت من عُقدي، وتصالحت مع نفسي، لكنّك بعيدٌ كنجمٍ، وهُـــم قـــريبون كـــربطةِ عُنق!، مستحيلٌ كقَدَرٍ، وهُم ممكنونَ كخيَال.

مرّ يومانِ على عيدِ رأس السنة، و لم يحضرني منك شيء غير أن كتـــبت لي شُـــكراً في صفحتكَ بالتويتر، أستمعُ لأغنيةٌ لأم كلثوم من غرقي في خيالاتي نسيتُ أولها، تقولُ الآن "وأحبّ تاني ليه وأعمل بحبّك ايه" وأتساءل هل يُمكن للإناء الممتلئ حتى إنه لَيفَيضُ أن يجد فراغاً لأي قادم؟! ثمّ تقولُ في مقطعٍ آخر بأنها لن تنسَ لأنها لم تفكّر في ذلك حتّى!، وأتساءلُ بكلّ ذُهول:

أوَ يُفكّرون في النسيانِ ثُم ينسون؟!.

تـــبّاً، إن كلّ مرّةٍ أتكلّفُ فيها ذلك التّصرف الأخرق، لا يحصل من ذلك شيء سوى أنني – وللأسف – أتذكّرُ أكثر، أهوَ زِرّ، أيقـــونة تُنعَتُ بـــ "انسى" يتمُّ الضغطُ عليها ثم يكون لنا ما نريد؟!.

بحـــقّ الله انْ صَدَقت أمّ كلثوم في ذلك الجزء من أغنيتها، فسأُراهِن بما أملِك من صبرٍ لمن يدلُّني على مكانِ ذلك الزر اللعينِ لألكزه بما بقيَ لديّ من تفاؤلٍ و– يا للخَيبةِ – أنسى!.

نحـــنُ لا نُفكِّـــرُ في النسيان لننسى، إننا نفكّر فيهِ لنوغلِ في التّذكّـــر، وفي تتبُّع التفاصيل، النسيانُ يأتي فقط حينَ ننسى أنّنا نُريدُ أن نَنسى!.

أفكّـــر في رحيلِك كقطرة ماءٍ انـــزلقت من بينِ أصابعي، أتذكـــر كلّ ما آلمني منك، فالرّحيلُ حبلُ غسيلِ الذكريات بماءِ اللّوعة، كلّما طالَ طالت!.

أتأمـــل وجهـــك المحفور في أعماقي قبل أن أراه، صورتك أمامي الآن كجريمةٍ أبقيها حتى ينام الناسُ لأقبلها وحدي، ولكن هل تدري!

مُـــوحشٌ هـــوَ الارتماء بحضنك الليلة، كمحاولةِ توسُّدِ الـــصّحراء ذاتَ ظهيرةٍ فاجرة، والليلُ هُنا يحتاجُ أن أهدهدهُ لتخـــرُج من روحهِ الوعود، ولتتبوأ الاعتذارات صفحةَ القمرِ عـــن مُجـــرّدِ الغـــياب، والذّوبانِ بلا أثر، فالحياةُ دَينٌ كبيرٌ استلفناهُ من الموت لا تكفيهِ اختناقاتنا بالسّدادِ ليُطاردنا حتّى في كوابيسنا!.

لمـــاذا جعلـــتني أحبّك إلى هذه الدرجة، ثم خطفت روحي كرهينة ورحلت، حتى دون أن تستشيرني إن كنت أريد روحي أم لا؟!.

أنتَ لا تُساعدُ أحدا على حبّك على فكرة، لكنني وجدتك تقتحمني كورم خبيث، استوطنني بسرعة، وبات الشفاء منهُ يعني أن أختفي، فكلّك أنا.

أخـــبرتني مـــرة حين عدت من دراسة اللغة في أحد معاهد اسكتلندا أنّك تتوقُ إلى امتلاك اللغة كما تمتلك العربية، وبعدها ســتكتب كتـــبك لمن سيحترم وجودك، وفكرك، لمن سيفيدك، ويزيدك

تمنيتُ يومها أن تفعل كلّ هذا، أن يتحقق كل ما تتمناهُ من نجاحات، لكن...حبا بالله اترُك كلمة وحيدة على لسانك، كنتَ حـــين تنطقُها أشعر برغبةٍ في ابتلاعها، في تقبيلك كطفلٍ ينطق أولى كلماته في الحياة، احتفظ بكلمة "شسمه" ولتكن ماتريد!.

رسالةٌ من سالم يقولُ فيها أنهُ اكتشَف أنهُ اللهُ!.

استطاع اضحاكي في زحمةِ الآلام، ولم أرد تفويت فرصةٍ كهـــذهِ اللـــيلة، ففعلـــت المحادثـــة، وطلبت منه تفسيراً لهذا الاكتشاف.

كنت أكتب له: وماذا بعد يا سالم؟ هل تعبثُ معي؟ حسناً كم عدد أبواب جنتك؟!!

ردّ عليّ في صباحِ الجمعة وكتب:

"هـــذا هـــو قَدَرُ الله، أن يبقى في دائرة الشّك، والتخمينِ، واللاتصوّر، اليقينُ يقتله"!. اسمعي يا زهرة المدنية:

بإمكان كل انسان مترقّي ومؤمن أن يكونَ اللهُ نفسه، وهو مـــن يخلـــقُ جنتهُ، وناره، كلما كان وجوده سلاما وخيرا وبراً وصدقات وأعمال تطوعية، كلما دخل جنته أكثر. !

كتبتُ له:

حــــسناً، مازلتُ أفضّل ألا أصدّقك، هل سيجعل مني ذلك شيطانا في نظرِك؟

أنهـــيتُ تلك المحادثة وأنا أستغرب من قدرته على اختلاق عـــالم خاص، يصبح مؤمنا به في وقت لاحق، ثمّة مذاهب دينية تنشأ على أكبر قدرٍ من البكائيةِ، وتفعيل عقدة الشعور بالذنب، والمـــبالغة في تخطـــيءِ الذاتِ، وتجهيلها، وتعذيبها، مقابل رضى المقدســـات، الطفل الذي نشأ على أنه مضطهد لأنه يحب دينه، وموعـــود دائمـــاً بالخلاص، وبالنّصر، وبالتتويج، يصبح حياً في داخلِ حالةٍ من الوهمِ المليءِ بالشجنِ والمشاعر المتداخلة، وهذا ما كان سالم يخبرني به وأتوقع ان ما وصل اليه هو نتيجته.

ســـأخبرك عـــن احتيالاتـــنا الجديدة على انكارنا بصورنا وكينونتنا، كلّ الفتيات في برنامج المحادثة السريعة يضعن صورهن كاملة ويخفين وجوههن بطريقة احترافية كأن يغطينها بشعورهن أو بالانحـــناء الكامل للأسفل، أو بوضع وسادة أنيقة عليه، إنها الطريقة الجديدة للاعتراض على الحجاب، وللتمرد عليه، مع بقاء الخوف العميق من افتضاح أمرهن فإخفاءُ وجوههن، علامة على الخوف من العقاب الاجتماعي، لا الديني.

احـــدى هـــؤلاء الفتيات كانت موضي صديقتي منذ أيام الطفولة، تخصّصُ صفحتها في كتابِ الوجهِ لجمع أكبرِ قدرٍ ممكنٍ من البويات، وتكتب عن ضرورة الاعتراف بهنّ كضحايا وجدن أنفسهن في هذا الشكلِ ولم يخترنه. والدها قاض في احدى محاكم

الرياض، قدم من بريدة منقولا لكفاءته في العمل، وفي منـــزلهم، تـــستخدم الإنتـــرنت خفيةً، وتقص شعرها قصيرا جداً، وتغطيه طيلة الوقتِ بحجاب، حتى لا يراه والدها، أمها تعمل داعية تابعةً لوزارة الشؤون الإسلامية ومعلمة للقرآن في احدى الجوامع.

لكنّ موضي حين كنت معها في الرياض هيَ التي دلتني على كـــلّ مزالقِ العاصمة، وزرنا معاً استراحة أصدقائها كانوا صبية وفتيات يتفقون على الحرية، وحب الرقصِ، والغناء.

ومعها استطعت رؤيتك بعيدا عن العيون، واستطعت حبّك فوق استطاعتي!.

هـــلْ توقّفت عن الكتابةِ لك يوماً؟، ربّما فقط حين أشعر أنني في حالة لا تسطيع لغات العالم وصفها، هل تعلم؟، الكتابةُ أيضاً حالةُ تزييف هيَ الأخرى، إننا نفكّر فيما سيقوله الآخرون عما كتبناه، نمسح كثيرا، ونعدّل، ونغيّر، نتذكر أنواع السلطات، ونحكّمُ ظروف وجودنا فيما نكتبه، أنا أيضاً قد أكتب لك شيئاً غـــير حقيقـــيّ، ليس لأنني أكذب، بل لأنني أريد ارغامك على تصديقي، حتى المذكرات الذاتية جدا، حين نشعر بصدقها نخاف منها، نخفيها، تصبحُ عبئاً مع الوقت.

لذلك لن أكتب لك كلّ شيء، سأخفي عنك أشياء كثيرة، تفاصـــيل صغيرة، خيالات حمقاء، مشاعر غريبة، وكفراً مؤمنٌ، وايمانـــا كافر، لن أقول لكَ كلّ شيءٍ حتّى عن حبّك، فأنا في الحقيقةِ أحبُّكَ أكثرَ ممّا أحبُّك!.

عيدُ ميلادي الليلة، توقّفت عن حسابِ عمري منذُ رحلت، أوقفـــت قدرتي في الحياة على حرق الوقت، فأنا أدخّنُ غيابك بشراهة، وأطفئ سجائري في خاصرةِ الوَجد!.

علـــى طـــاولتي تنامُ وجوه، وأقنعةٌ مبتورة، وأغنيةٌ قديمة، وأختـــارُ شتائمي بعناية، فلاَ شيء يُعكّرُ صفوَ عيدي سوى شتمُ أحـــدهم بأقّل من توقّعاته، فيا كلّ هؤلاءِ الحمقى، والسكارى، والـــواهمين، والافتراضيين، والبائسين، والمثاليين، رتبوا أصنامكم جيّداً، سألعَنُها الليلة!.

في عيدي الأخير كسرتُ مرآتي لأنها مُسرفةٌ في تزييفي، لماذا لا تجـــرؤُ تلـــكَ الحمقاءُ سوى على اظهارِ يبَاسِ شفتّي، وقرصةِ ناموسة ليلةَ البارحة، وبقايا كحلٍ فاسقٍ حين نامَ أسوداً واستيقظَ فاتـــراً، ولأنهـــا لن تجرؤُ على قولِ الصّدق، ولن تعكسَ سوى القشور فسَأكسرُها هذا العيدُ أيضاً!.

اللـــيلة تحديداً أشعر أنّ امتلائي بكَ خالٍ جداً!، فالحبّ هكذا بلا سقفٍ، ولا أملٍ، ولا عهود، ولا نهاية متعبٌ وجبّار، أن أجلسَ في شُرفتي دون أملٍ أن أراك، أن أسمع صوتك، أن أعرف رأيك في مفاتني المراقةِ بلا ثمن، أن لا يكونُ هناك صلةٌ بيني وبينك، سوى معزوفةٌ تعتصرُ روحي كنّا سمعناها معاً يوماً فإنه عذابٌ أكبرُ من احتمالي، أنا التي سخّرتُ العمر للُقياك، فـــسخِرَ منّـــي، هذا يدفعني إلى تجفيفِ دموعي التي رقّت لها الـــدروب، وأتقوقـــعُ على نفسي غريبةً كما ولدت، وأطلقُ

أمنياتِ عيدي إلى السّماء، هي كثيرةٌ، كثيرة، كلّها من أجلك وكالعادةِ نسيتُني!.

** ** **

في مدخلِ الجامعةِ صباحاً اللونُ الأسودُ يطغى على المشهد، يبدو الأبيضُ بجانبهِ نقيضٌ كامل أتامّلنا نحصُر الحشمة في السّوادِ وأتساءل عن رمزيّة تلفّعِ النساءِ بالسّوادِ واختصاصِ الرّجالِ بالثّوبِ الأبيضِ في وطني، هل قُدِّرَ عليها أن تبقى وصمةً سوداء في تاريخِ الرّجلِ ناصعِ البياض؟!

ثمّ من حدّد اللون، هل هو صاحبُ "قل للمليحةِ في الخمارِ الأسودِ" أم هو مجتمعٌ يتوجّسُ منها ويحصر فيها الفتنَ، والغواياتِ، والدونية، تساءلتُ ماذا لو ارتديتُ غداً عباءةً بيضاء هل سيكونُ الرجلُ أوّل المُمتعضين؟، الرجلُ نفسهُ الذي يدعي الكمال سيكونُ أول من يرمقني بنظراتِ التّشهي، والريبة في آنٍ معاً!.

سيقولون بأنّ المرأة هي التي تحدّد حشمتها واحترامها من الداخل، ثمّ يكونون أوّل من يغمزُ لها في الشّارع حينَ تكشفُ عن مفاتنها، فنحن نحتاجُ إلى تنميق حتّى الوهم لإدراكِ مدى جمالِ قُبحِ الحياة!.

في زحامِ الدّخولِ إلى حرم الجامعةِ أواصلُ تأملاتي فينا نحنُ السوداوات، في تاءِ التأنيثِ السّاكنة، هل كانَ لزاماً عليها

الـــسّكونُ حتّـــى في قواعدِ اللّغةِ "قالبُ الفكرِ" فلا تتحرّكُ أبداً؟!.

المرأة منذُ وُجِدَتْ، وجَدت نفسها مثقوبة، انه عنصرُ نقص، ذلـــك الـــثقب الأبديّ، لا أذكر ثقافةً في العالمِ لا توجد عندها شتيمةٌ تصفُ المرأة "بالساقطة والعاهرة" بل ربّما وصلوا إليها قبل مفردات الحبّ والتبجيل، الرّجلُ هو الذي صنع اللغة لأن آدمَ هو مـــن علّم المرأة والأحياء أسماءها، كان صاحب السّبقِ في ابتكارِ اللغـــةِ، المرأة تعلمتها منه، ووجدت نفسها مدانةٌ بهيأتها الأولى، بتضاريسها المُسهبةِ في التّشهي والفتنة، تمنّعت عليه، ووجد نفسهُ محـــتاجٌ إلـــيها أبداً، الرجلُ الذي جاءَ كاملاً يؤلمهُ أن يأتي كائنٌ مثقوب، يملكُ مناط متعتهُ ويتحكّمُ في شهواتهِ إلى الأبد، فنفّسَ عن غبنهِ بقاموسٍ من الشّتائم، وعقلية لا تعي سوى ما تراهُ وما تقتضيهِ الحاجة المربوطةُ بمزاجِ امرأة، إنّها حالةٌ تشبهُ نظرةَ الفُرقاءِ في المستوى سواء كان ماديا أو عرقياً او حضاريا تجدُ دائماً عند الأقل لغة خاصة ومفرداتٍ تحملُ الكثير من التحقيرِ والتقليلِ من قـــيمة الآخـــر، في لغتنا لا يوجدُ وصفٌ للرجلِ الفاجرِ، الرجلُ المفرطُ في اشباعِ نـــزواته، نادراً ما أستطيع وصفة، وان وجدت فهي عبارات أقربُ إلى التهذيب والفتور.

الإيمانُ صعبٌ "يا عبدالله" والانفلات أصعب، هذا ما أدونهُ الآن على شاشةِ الكمبيوتر بما أن مديرتي لم تحضر إلى مكتبها بعد فـــسأستغلّ هذا الوقت لإخبارِك عن سرّ جديد لأنه حتّى الضوء

حين يشتدّ يحجبُ الرؤية، الإيمان الكامل كفرٌ بشكلٍ ما، فرص ضـــائعةٌ بطريقة ما، هذا ما أراه فالذين عرّضوا وجوههم للرّياحِ لتنحـــتها باتوا أجملً من الذين بالَغوا في ارتداءِ القبّعاتِ وتدليكِ مراهمِ الوقايةِ من الشّمس، لا شيءَ يحميكَ أكثرُ من التّجربة، هل أنتَ معي؟!

وبما أنّ تساؤلاتي لك ستظلُّ حبيسة السطور لكنّ رغبةً في داخلـــي لا تـــتوقّف عن سؤالك، والاستئناس بِك، تجعل كتابة سؤالٍ موجّهٍ إليكَ، كقطعةِ حلوى أكافئ بها نفسي التي تعبت في الـــنداء ويئست من الصّدى، لا يُمكننا أن نسلّم بكل شيءٍ، أن نـــصدق كـــلّ شيء، أن نطبّق كل شيء، اعتماداً على الفطرة، الفطـــرةُ تقولُ بأننا نحبّ الغناء، والدين يحرّمه، الفطرةُ تقول بأنّ التّزين والمبالغة فيه طبيعي، والدين يحيله إلى تقليدِ الغرب، الفطرةُ تقـــدّس الجمـــال وتميلُ إليه، والدين يحفّه بالفتنةِ وأنواعِ التأنيبِ والقمع، الفطرةُ تميل إلى تصوير ونحتِ وتمثيلِ ما يعتمل في داخلنا ومـــا نحـــبه من أشياء والدين يحرمها بتاتاً، الفطرةُ تكرهُ العنف والقـــتل والكذب والسرقة والفساد وتقديسُ الذات ونبذ وتحقيرِ الآخـــر، والـــدين يشكّ بنصيبنا من تلكَ الكراهيةِ فيعلّمنا اياها بالعـــصا، ويـــستطيع رجالـــهُ دائما تفسير أي خلل من منظورٍ شرعيّ، وهكذا لم نعد على الفطرة أبداً.

طفلـــةُ أخـــي حين كانت تأتي لزيارةِ جديها، أيامَ كنتُ حبيـــسةَ الخطيئةِ، كانت تتعمّد اغلاق بابِ غرفتي وتوشوشُ لي

بـــصوت خافت "عمتي أريدُ أن أسمع الموسيقى التي في جوّالك!" فنُدندنُ معاً ونرقصُ فرحاً على أغنية "من بين النّاس".

الموسيقى والألحانُ حالةُ ترتيبٍ وتناغمٍ تُخرجُك من الواقعيّ إلى الخياليّ، ومن الزمكان إلى اللازمكان، ووحدها تستطيعُ خلق حالةٍ من الأحلامِ الجماعية.

جـــارتي في الحيّ وفي المكتب بالجامعة اسمها خلودٌ اربعينية طـــويلة القامة ممشوقة القوام تتوسطُ ذقنها شامةٌ مميزةً لوجهها، تفـــوح منها روائحُ عطور مختلطه دائما، مقبلة على الحياة بشكلٍ مغـــري، ويسكنُ عينيها جمودٌ غريب، كان لقائي الأول بها في شـــارع البـــناية التي نتجاور بها طلبت مني ايصالها إلى صالون التجمـــيل وفي الطريق تحدثنا عن رغبتي في الحصول على عمل، كانـــت فيما بعد سببا في حصولي على عملي الحالي، سنخرج اليوم بعد انتهاء الدوام لتناول الغداء بأحدِ المطاعم، كانت خلود أول امرأة تثبتُ لي كم هو الكذب سهل، وإلى أي مدى يصبحُ النّفاقُ ذكاءً، ميزَتُها أنها مخلصةٌ في الخيانة، تؤدّي فسوقها بضميرٍ ميّت، وتقضي ليلتها في الاستغفار!.

أن ترافق امرأة عاهرة فهذا يساعدُكَ على اكتشافِ طهرِك يوماً بعد يوم، تبدو لي كلّ يوم مقنعةً بخطيئةٍ جديدة، وبعيداً عن علاقاتهـــا المحـــرمة، تتمـــتعُ بحياةٍ زوجية تشبهُ السعيدة، رتيبةٌ، وموفـــورةُ الحـــظّ، لـــديها ابنتان في سنّ الجامعة، وولدٌ في سن المـــراهقة، زوجها تاجرٌ يسافر كثيراً، ويخبرها دائما أنه لا يحرم

نفسه من شهوةِ النساء، قالت لي مرّة إنني لا أشعر بهِ كخسارة، ولكـــنه بـــات مـــع الوقتِ في حكمِ المضمون فشعورُ الإنسانِ باســـتبعادِ فقدانِ الشيءِ أو الحرمانِ منهُ يُفقدُهُ الشّهيةَ له، كانت تستمتعُ أنها لا تترك رجلاً تشتهيهِ إلا وأوقعتهُ في حبالها ولديها ما يكفـــي من الوقتِ بعد ذلك لتتوسّط ابنتيها وتحدثهن عن أنواعِ الفضيلةِ، ولتزور أمها يوم الجمعةِ لاصطحابها إلى الحرم.

ليـــستِ مـــشكلةً أن تكون جارتُك كذلك، المشكلةُ حين تضطر كل يوم إلى ابتكارِ كذبةٍ لأبنائها عن مكانِ وجودها الآن، اعتـــيادُ ابنتـــيها على وجودي مع أمهما جعلني منوطةٌ بالنّصفِ الأسواءِ من حقارتها وهي ادعاء وتلفيقُ الأعذارِ والتبرير.

أن تنتظر غداءك على وقعِ عباراتِ خلود المسرفة في الفحشِ، فهـــو عقابـــــي هذهِ الظهيرة، لكنّ طبقي المفضّل من الإسباغيتي يـــستطيع تخفيف حدةِ توتّري، وتدخينُ سيجارةٍ بعد ذلك ينسيني تقززي من ايحاءاتها، في أعمقِ أعماق خلود توجد امرأة مكسورة، مـــساحةٌ من بكاءٍ مقبور، حبّ مدنّس، وصداقةٌ صادقة، حسنتها الوحـــيدة أنهـــا تثقفني من يكونُ هذا الكائن الرجل، وماذا يريد، ليـــست من تضاجع ستينياً معتلاً آخر من تفكر بذلك بل هي لا تفكـــر بهِ أصلا. لكنك تَحضُر، وخيالات اشتهائك لا تنتهي عند حد الكلام، ولا تستطيع طعمها الأحلام!.

الحـــياةُ لا تُمـــنحُ لنا مرتين لذا فكلٌّ فرصةٍ فيها هيَ فرصةٌ أخـــيرة، كان هذا منطقُ خلود، وكانت تبدو سعيدة، ولم أكن

أريـــدُ تـــصديقها وما زلت، فأنت الفرصةُ الوحيدة وأنا نسيتُ وتناســيتُ أن العمـــر يمرق، وأن تلك الفرصةٌ تبتعد عن كونها فرصة لتقترب من كونها حلُماً.

فنحنُ نُسابقُ الزمن لنتمكن من اللحاقِ بنا، ثمّ ينقضي العمرُ والقُدرةُ و لم نلحق بنا بعد، فيا لَنا ما أبعَدنا عنّا!.

لا أدري لمـــاذا حين يكونُ الظُّهر أتذكر جروحك، وحين يجنّ الليلُ أتبرّكُ بحنانك، الجروحُ لا "تتماثلُ" للشّفاءِ، إنّها "تمثّلُ" دور الـــشّفاءِ لننـــساها بدورنا، وتتذكرُنا هيَ متى أرادت، تلك الجـــروح التي تُشبهك بعيداً، وتشبهك راحلاً، وتشبهك صامتاً، وتقـــتحمني كنحسٍ حين أحاولُ أن أضحك بعمق، فمع خلود كـــنت أود ذلـــك، كـــنتُ ابحثُ فيها عن هذا الكمّ الهائلِ من النكران. من التّجرد، من النسيان، كنت أريد أن تمنحي شيئاً من صـــلافتها، أطفـــئ بِها حناني عليك، خوفي عليك، لهفتي التي لا يُماثِلُها حتى حر ظهيرة في جدة.

عائدةً إلى بيتي أتأمل الطرقاتِ التي مشيناها معاً، ممتلئَين حبّاً ومطر، وفي شرفتي كالعادةِ كل ليلة، أجوعُ إليكَ كَمنفيّ، وأقتنعُ أنّ التّحديق في طرقِ الغائبين لَن يُعيدهم أسرع لكنه كل ما يفعلهُ المنتظرون كلّ ولاتِ حنين.

أنـــا كلما سافرتُ منك، وجدتُك، الناسُ يسمون أبناءهم باسمك، والصحيفةُ لا تتوقفُ عن طباعةِ مقالِك، والبردُ لا يوزّعُ دفئاً مجانياً، فكيف أنسى؟!.

المُـــشكلةُ ليست في عدمِ وفاءِ المرايا صَدّقني إنها في الواقفينَ أمامها، الجروحُ التي لا تكشفُها المرايا هيَ - للأسفِ - أثمنُ ما احتفظنا بهِ ثُمّ لم نرحمِ الآخرينَ والمرايا من اللوم.

حين توجهتُ إلى لبنان الصيف الماضي، كنتُ عازمة على ركـــلِ كـــلّ ما آلمني بهِ الوطن، وأنت مما آلمني به، كنتُ كمن خنقـــتهُ أحلامهُ حين كثُرت، وأراد أن يجد متّسعاً عنها، فحاربها مـــرّة بالنـــسيان فذكرتهُ بها كلّ ليلة، وحاربها أخرى بالتّجاهلِ فتـــراءت لهُ في عيونِ السّعداءِ، وفي بريقِ الأبهةِ على كلّ اتّجاه، أظهـــر لها كم هو بعيدٌ عنها فتمادت في المُبالغةِ مدليةً لسانها بينَ عقاربِ الوقت، ولمّا حزم حقائبهُ وهرب منها، استقبلتهُ في المطارِ كأولِ أنيسٍ في الغُربة!.

اتذكـــر المرة التي حدثتني فيها من القاهرةِ قبل عام، نشواناً كعادتـــك حين تستعذِبُك جراحي، كنتَ تصمتُ كثيراً وكانَ قلبـــي كقطعةُ نقودٍ سقطت على سطحٍ صلب، يُصدرُ ضجيجاً كصداع وتساءلت بعدها لماذا نخافُ حين يستغرقُ من نحبّهم في الـــصّمتِ والشّرود، رغم أنهم حين يتكلّمون قد يُجاملون، وقد يكذبون، لكننا - وكحمقى - بأي كلامٍ منهم نرتاح.

قلـــت لي أنك تحبّ نفسك، وحين تحبّ نفسك فستمارسُ ملـــذاتك، و لم أزد أن قلت "أحببها أنت كما تشاء ولن تجدني سوى مغمضةٌ عينيّ وضميري وقناعاتي أحبّها معك"!.

** ** **

اليوم هو صباح أحد شتاءاتِ جدة المتشابهة، لا يقرصُك البرد هنا كبريده، لا يذكركُ بهِ على محملِ الجد، هنا حتى الطقس يعطيك خيارا واسعاً من التأثُّر.

قبيلَ الفجر وصلتني رسالةٌ على هاتفي المحمول تذكرني بوجودِ عشرِ رسائل جديدة في صندوق بريدي، والسّهرُ إلى هذا الوقتِ سيجعلُ التسلي بقراءتها أمراً مُحبّباً، خمسُ رسائلٍ من فاطمة ابنةُ عمي، في احداها تأمرني بإرسال رسالةِ تحوي دعاءً إلى خمسين شخصاً وإلا فإن بلاءً سيحلُّ بي، مسكينةٌ فاطمة هذا ما يخطر ببالي دائماً حين أقراؤها لم تعد تعرفني، ولا نلتقي إلا نادراً ولدت معي في نفس العام، ووقفت إلى جانبي في محنتي، وحينَ أحجم الجميعُ عن سماع صوتي، كانت تسمع، مشكلتها أنها لازالت تعتقدُ أنني تلك الخطيبةُ في جامعِ الحي في بريدة، وأنني لا زلتُ أقفُ أمام المرآة طويلا قبل أن أقرر ما هو الأصلح للدين تشقيرُ حاجبيّ أم عباءةُ على رأسي؟

فاطمة كغالبيةِ نساءِ بريدة، داخل ثلاثةِ سجون الخرافة التي يعضدها الإيمان، والتقاليد، والرجل، المشكلةُ أنها حين لم تجد أمامها سوى هذهِ السَّجون الثلاثة، طلَت جُدرانها بالوردي، ورسمت عليها الفراشات، وبدأت تحلُم!.

زيّنَت لنفسِها سُجونها، ربطتها بالوعودِ الطويلةِ بالجنّة، بالثواب، بالحريّة، والمتعة المطلقةِ في الحياةِ الآخرة، برّرت لنفسها كلّ ما يصعب على الكرامةِ والعزّةِ ابتلاعُه من صنوفِ الهوانِ

بمـــزيدٍ من الحجج التي تُبقيها تشعر بالامتنان لسجونها الثلاثة، لا النّقمة عليها، وبهذا تستطيع تمضيةَ العُمرِ داخلها بوهمٍ جعلتهُ مع الوقتِ يبدو جميلاً!.

رســـالةٌ وحيدة وصلتني من مستخدمٍ أعرفهُ من سنواتٍ باســـمِ "الذئبِ الوحيد" عرفتهُ في أحد الصحفِ الإلكترونية، وفـــيما بعـــد في منتدى تنويريّ، كانَ مُلحداً بامتياز، وقادراً بشكلٍ عجيب على اثارةِ حنقي، ومحاولاتي المُستميتةِ في اقناعه بفكرتي دونَ جدوى، كانت رسالتهُ رابطاً لمقطع فيديو كتبَ أعـــلاه: "هـــل مـــازالَ ربُّكـــم يُقـــدّمُ الرّشاوى على هيئةِ مُعجزات؟!"

مـــسرعةً فتحتُ المقطع، كان لضحايا نجو من كارثةِ سيول جـــدة بأعجوبة، واضحٌ أنهم من الكارثة الأولى، أحدهم يحكي كـــيف بقـــي متمسكاً بعمود كهرباءٍ ست ساعاتٍ متواصلة، وعائلـــةٌ أخرى تحتمي بقطعة أثاثٍ تبقيها في حيّز الحياةً قريبا من ســـقفِ الغـــرفة حتى وصول النجدة، وغريقٌ تنقلهُ سيارتهُ إلى ارتفاعٍ اسمنتيّ حماهُ من الموت.

رددتُ عليه في رسالة فوريّة، إنهم مؤمنون، ونجاتهم أو موتهم جـــزءٌ من ايمانهم، وحين أصبحتُ في العمل كان متّصلاً ببرنامجِ المحادثة، ووجدتهُ يقول:

أنـــتمُ تبرّرون لهُ فساده، تربطون ذلك بذنبٍ جماعيّ، وهذا ليسَ عدلاً.

قلـــتُ لـــه: لا أحد ينكرُ أن الخطايا كلما كثرت هلكتِ الجماعـــةُ سواءً كان ذلك بالسيل أو غيره، أنظُر إلى المسألةِ من ناحيةٍ تقنية بعيدا عن مَلمحها الديني... الأخطاءُ قاتلة.

ردّ بـــسخريةٍ بغيضة: لا أستغربُ ان كان ذلك الكرمُ في الـــتّكفّلِ بتبريـــر فسادٍ قدّريّ الالهي، سيكونُ نتيجتهُ أن لا تحـــلَّ لمـــشلكم أبـــداً مُشكلة فسادٍ اداريّ بشري. بعقليةٍ كهـــذهِ ستمتـــصّون كلّ ما يمارسُ ضدكم من قهرٍ بضميرٍ مُحتسب!.

قلـــتُ بحـــنق: أيها الذئب، اذهب إلى الجحيم، فلديّ هذا الصباحُ ما يكفي من القلق.

كلّ ما أعرفهُ عنهُ طيلةَ هذهِ السنوات، أنهُ ذايديّ من عرعر، يعمـــلُ مهندساً في شركةِ بتروكيماويات، ويكرهُ الأديان بشكلٍ جيّد!

قـــالَ لي إنّ كلُّ الناسِ يحملون حيواناً في داخلهم، بعضهم يكبـــتهُ بالاقتـــناع والقانون الأخلاقي، وبعضهم يكبته بالقمع والتجـــريم وأشنعُ المجتمعات هي التي بالغَت في تصويرِ الإنسانِ علـــى أنه ملاكٌ طاهر، يصبحُ حيوانهُ مريض وحينَ يُطلق ينتهكِ حتى ذاته!.

كنتُ أسخرُ منه في نفسي قلتُ

هذا للرجالِ فقط الرّجلُ يحملُ خيالاً ماجناً.

فاستدْرك:

النّـــساء الـــلاتي يـــدعين النقاء والطهارة هُنّ ماجناتٌ في التفكيرأيـــضاً، ومن هي على عكسهنّ تكونُ ماجنةً في السلوك طاهرةً في التّفكير.

أردتُ البـــصق في وجهـــه لكنني تذكّرت كم من المراتِ فكرّتُ فيك عارياً فتراجعت.

أذكرُ أنه مرّةً وضعَ صورةً لهُ في أثناءِ المحادثة، وحين تحدثنا بعدها لعشرِ دقائق دون أن أعلّق سألني بغضب:

هل أنتِ امرأةٌ معطوبةٌ، أو عمياءُ مثلاً؟!

قلتُ له: نعم هو كذلك. معطوبةٌ جداً، معطوبةٌ بشكلٍ لا يُرجى بُرؤه.

وضـــع لي رابطاً لكتاب طلبتهُ منهُ، وأغلق المحادثة، وفكرت لقـــد كان وسيما فعلاً، لكنيٍ لا أراهم رجالُ الأرضِ كلهم، لا أراهم!.

في المكـــتبِ حـــيثُ صـــباحاتٌ الجامعةِ مليئةٌ بالضجيجِ، والثرثرة، والأزياء، والعطور، التفتّ إلى خلود وهي تبادلُ أحدهم كلامـــاً معـــسولاً سمعـــتهُ منها عشراتِ المرّات قلتُ بتقزّز: ألا تسأمين!، تُخطئين في اسمِ أحدهم، تحبّين مثلاً؟!

قالت: إنهُ امتياز لا يمكنُ أن تحصّل عليهِ امرأة تؤجلّ حياهٓا، وملذاهٓا، وفُرصها، من أجلِ مُجرّدِ ذكرى رجُل!.

فكّـــرتُ هل ما تقولُه صحيح؟، هل أخرستني؟، لا يا لهي أرجو أن لا!.

أوهامُـــنا الصّغيرة نحنُ أنفُسنا الذين نُغذّيها لنصنع منها فيما بعد وحوشاً تُكبّلنا من الخوف، وحوشنا باتت كثيرة، وأوهامُنا صارت كافيةً للتصديرِ بكميات تجاريّة!.

انّ أولـــئكَ الـــذينَ علّمونا الخوف، استكثروا علينا جُبننا، وخنوعـــنا، فـــشاركونا فـــيهِ، وزاحمونا عليه، زيّنوا لنا صمتنا، وأعطونا الحسناتُ تترى ثمنَ تصديقهم، ووعدونا بما لا يملكونه.

يعـــتقدونَ أنّنا الأفضل، ويبررون كلّ تأخرٍ على أنه ابتلاء، ويـــربطون كـــلّ فشلٍ بحسنة، ويلوونَ أعناقَ النّصوصِ لتعضد أفكـــارهم، ويعدوننا كلّ يومٍ بنصرٍ مبين فلا نرى سوى فشلاً مبيناً.

أســـئلتنا تُحـــدّدُ مُسبقاً في لقاءاتٍ توصفُ بالشّفافيّة، ومن يخـــرُج عـــن ما هو محدد له، مَن يكتُبُ وجهة نظره، من ينقدُ بـــضميرٍ حـــيّ، من يسألُ بِجرأة، عليهِ أن يحتمل احدى أمرين، فقدانهِ لعمله أو فقدانهِ لحرّيته التي لم تكن حرّيةً أصلاً.

الجـــريمةُ ليست في السؤال، الأسئلةُ فضيلةٌ كُبرى، الجريمةُ تكمنُ في اختلاقِ الإجابات المُلزمة، في تلفيقِ الأدلة، في احتكارِ الحقيقة.

ومعَ ثورةِ المعلومات، لم نكنُ سوى ثيران معلومات، نردّد ما يقولونه، ونغضّ الطرفَ عن كلّ ما نعتقدُ أنهُ لا يعنينا، الفسادُ لا يعنيـــنا، والـــدينُ لـــه رموزهُ التي نُسبّحُ بحمدها ليل نهار هُم وحـــدهم من يملكون حقّ التّحدثِ باسمِ الله وتوضيحِ ماذا كان

يـــريدُ أن يقول لنا، وما إذا كان غاضباً منّا، وما إذا كنّا مازلنا مُسلمين أصلاً، والسياسةُ غولُنا الأكبر الذي بات عبارةً نتندرُ بها على كلّ من قال شيئاً لا نفهمهُ.

المُشكلةُ أننا عوّقنا حتّى الأفكار الجديدة، سببنا لها عاهات مُستديمة، يُمكِنُنا أسلمةُ كلّ شيءٍ بقدرةٍ عجيبة فنحنُ الوحيدون على مستوى العالم لدينا ملابسُ بحرٍ اسلامية!.

والليبراليةُ باتت موضةَ السّنتينِ الأخيرة عندنا، فالدّيكتاتورُ ليـــبراليّ، والإســـلاميّ ليـــبرالي، والفاسدون ليبراليّون بامتياز، والمنافقون ليبراليون، وحتّى جدتي يُمكنها أن تكون ليبرالية!.

هل أتعبتُكَ في الحديثِ المُسهب عن سوى عينيكَ؟

هذا ما يحصُل حين أجدنُي موظّفةً بلا عمل، أثرثِرُ لكَ عن كُلّ شيءٍ، أخشى أن يفوتك منّي شيءٍ، أريدُني كُلّي لك، حتّى هواجسي، وحماقاتي، وثرثرتي.

ولـــولاك كنتُ بقيتُ كما كنتُ في سجني ببريدة، أصدّقُ كوني عبئاً على الحياة، وأواصلُ انـــزوائي مُلطّخةً بالعارِ الذي لم يطهّرني منهُ حتى زواجي من مُسنّ، فالنساءُ في حيّنا ببريدة مازلن يرمُقنني بنظراتِ الريبةِ – حين زُرتُ أمي قبلَ شهرين –، خطيئةُ المرأةِ لا تُنسى، وكسرُها لا يُجبر، وذنبُها لا يُغفر.

ولكـــن يا للسعادة فدائماً هناكَ أشخاصٌ سحريّون يُعطونَ للوجود معناه، وللحياةِ قيمَتُها، وللحبّ شغَفُه، وللعقلِ دهشَتُه... أنتَ كُلّهُم!.

وبَـــكَ أصـــبحتُ أتلصّصُ على الأمل كُلّما أتاحَ ليَ الألم، فحتّـــى الأعـــشابُ التي داستها الأقدامُ إلى أن سوّتها بالأرضِ، استهلّت بنعمةِ السّماء، ودموعِ الغيمِ، فعاودتِ النمو من جديد، إنّهـــا إرادةُ الحياة، لا شيءَ يوقفُها في كلّ حيّ، فالبقاءُ على قيدِ الحياة - وحدهُ - نعمةٌ كبرى.

وأنـــا بقيتُ على الحياةِ لأحبّك، لأتطهّرَ بك من رجسهم، من موهم، من زيفهم، من منفاهُم الوطنيّ، لأنّ الخضوع للتخلّفِ والجمودِ مُشاركةٌ بائسةٌ فيه، وأنا بكَ لن أكونَ معهم.

أقـــرأ صـــحيفة الشرقِ الأوسط، رجالُ الدينِ يتراشقون، والليـــبراليون يتراشـــقون، وأعضاءُ مجلسِ الشورى يتراشقون، واللصوصُ أيضاً يتراشَقون، ونحنُ بينهم نسألُ عن خبزنا كفافَ يومنا.

نسألُ عن أرخصِ شقة للإيجار، وأرخصِ سيارة للتقسيط، وأرخصِ محلاتٍ للتموين، وأرخصِ أغطيةٍ للشتاء، وأكياسُ أرز الـــزكاةِ نعيدُ شراءها من السوقِ السوداء، وأسعارُ التخفيضاتِ نصطادها فتصيدُنا.

الفقـــرُ باتَ مُخيفاً وقريباً منا "يا عبدالله" الطبقةُ المتوسطةُ تعرّضت لزلزالٍ هزّها وجعلها أقربُ للصفر، والأغنياء تضخموا فأصبحنا لا نراهم من شدةِ قزامتنا.

فـــالأحلامُ التي غذّهَا سواعدُ البؤساء، وأعمارُهم، اقتطفها الأغنياءُ بحركةٍ رشيقةٍ واحده، إنها لعنةُ الاقتصاد الجديد.

والبطالةُ اقتربت من أن تكون سمةَ الأغلبية من الخريجين، نحنُ عالـــةُ على وطننا، لم يعد يجد لنا مكاناً، تضخمنا أكثر مما يجب، أو تقلّصنا أكثر مما يملأُ عينيه.

الأصواتُ الصغيرةُ المخافتة لا يسمعها أحد، والتي ارتفعت عـــادت لتسجلُ تراجعات واعتذارات عن ما قالتهُ صُدفةً، ونحنُ سمعـــنا، سمعنا كلّ شيءٍ تلك الخافتة، وتلك التي تراجعت خوفاً، فالصّامتونَ وحدهم يسمعون كلّ شيءٍ وقلنا كثيراً – في سرّنا – وسنقولُ، لكن صوتنا النهائي، مصدرٌ رسميّ.

** ** **

حين كنتُ طفلةً كان الحقل– فأنا من الفلاحين يبدو أنني لم أخبرك بهذا من قبل –كان جنةً من عمل، وعنفواناً من أمل، كان حـــياً مثلنا، علمني أبـــي أغنيةً للحصادِ، وأغنيةً للسُقيا، وأغنيةً للـــصباحِ، وأغنيةً للحرثِ، وأغنيةً للصرام وكنتُ أتنقّلُ جذلةً، وأشـــعرُ أن الكـــون كلهُ ملكي، يومها جاءَ تاجرٌ كبير لشراءِ الأرضِ مـــن أبـــــي فهي تُزاحمُ مشروعا لهُ، كان أبـــي يكادُ ينفجـــرُ من الغضب، لا أحد يبيعُ أرض أجداده، لا أحد يُزايدُ علـــى أرضِ أحـــد، كان لهُ صوتٌ عالٍ وصل للتاجرِ وتعداه، احتفظ أبـــي بوطنه يوم كان يستطيعُ حمايته.

أبـــــي الآن يحرّمُ الغناء، وباعَ أرضهُ بثمنٍ بخس، ويحضرُ دروس شيخٍ يركبُ حماراً لأن السيارة من لوثةِ الحداثة، ويعتقدُ

أنّ الزواج على أمي مسياراً- أو حتّى نكاح طفلة - من مظاهرِ المروءة، وتنفيسِ الكُرب.

في بيتنا وكل البيوت التي أعرفها، لم يكن يُسمح للنساء الأكـــل إلا بعد ورود الرّجالِ عليه!، النساءُ في بريدة يأكُلن فـــضلتهم، وفي بيتـــنا لم يُسمح لي يوما بنـــزع الحجاب عن رأسي، بعد أن تدلت لحيةُ أبـــي أطول، أصبحنا نغطي شعورنا عـــنه، ولا يـــسمح لنا بارتداءِ لباسٍ ضيق، الثوب الواسع ذو الألوان القاتمة، كان هو المسموح لنا فقط، كان أبـــي يجمعنا كـــلّ يوم المتزوجون منا والعُزاب ليلقي علينا درساً من كتب التـــراثِ كـــلّ ليلة، ومن يغيبُ عن الدرس كان عقابهُ مريرا ومؤلماً.

أذكـــرُ أن أبـــي ضرب أخي الأصغر حتّى تشقق وجههُ، وباغـــتهُ بكـــل ذلك الغضب، لأنه نام عن صلاةِ الفجر، أخي الأصغر الآن لا يتواصُل إلا معي، منذُ بلغ سن الجامعة وانتقل إلى الـــشرقية لدراسة الهندسة، وهو لم يعد إلى بريدة أبداً، هو الآن متزوجٌ من امرأة هولندية مسيحية، ويعيشُ في الخُبر، يعملُ ناشطاً حقوقـــياً، ويكتبُ الشّعر ليلاً، وعدني بزيارة لكنهُ حتى الآن لم يفعل.

لأنك صحراوي من وسطِ الرّياضِ فبينك والسّرابُ علاقةُ دم، كلّما تراءيتَ لي ظننتُك ماءً وحينَ آتي لا أجدُك شيئاً سوى بقايا ذكرياتٍ أعيدُها كلّ يوم علّها تبقى، علّها تبقى.

فمـــنَ المُتعبِ أنْ أرجوك، أتوسّلُ إليك، حتّى في خيالي، أن تبقى في خيالي!.

فعلى كثرةِ ما تحدثنا، خلالِ خمسِ سنواتٍ هي عمري حينَ عرفتُك، فأنا صدقاً ما زلتُ أشعر أنني لا أعرفك بشكلٍ كافٍ، لا أستطيع الجزم بما تريد، وما لا تُريد، لكن حبـــي لك هو ما أنـــا أكـــيدةٌ منهُ دائماً، فأنتَ كقصيدةِ التفعيلةِ منثورٌ بفوضى خلاّقة، ان جمعتُك أفسدتُك، وان تبعثرتُ معك تعبت.

حقيقـــيٌّ حدّ أن تؤلمُك آلامنا فتدافعُ عن حظّ مقالتك في النّشرِ، وحالمٌ حدّ رحيلِك عنّا إلى أنوارِ أوروبا.

الآمنا الكثيرةُ يا عبدالله، مازالت تؤلمك، وأحلامنا القليلةُ ما زالـــت تُلـــهمك، ومـــثلهم أنا، مثلهم أنا ألمي كبيرٌ، ومدهشٌ، وسقيم، لكن حلمي هو - فقط - أنت.

أبو حامد مسنّ يحملُ روح الشباب، أستطيع أن أعترف أنه كـــان معي أشد كرما ودماثةً مما تخيّلت، لكن نفسي لا تقبله، شيءٌ في روحي لا يعرفهُ، شيءٌ في جسدي ينفرُ منه، وخيانةُ مثله أمرٌ سهل، لكنني لم أفعل.

هُـــناك دائماً حكايةٌ صغيرة، سرٌّ لذيذ، أرجوحةٌ عميقة، في داخلِ كلّ منّا، لا يعرفُها حتّى أقربُ النّاس، كانت هذه الحكايةُ المـــستترةُ خلـــف النّفسِ هي حكايتي مع معاذ، والتي بدأت بعد رحيلِك بشهرين، كنتُ ما زلتُ أحاولُ تجاهل هذا الفراغ الذي تركتهُ في حياتي، في جسدي، في لياليّ وأغنياتي، لم أكن في مزاجٍ

يسمحُ بتجارب جديدة، حتى ولو كانت تجارب مبتورة، حتى لو كانت مجرّد ايواءِ مُحتاج.

ذاتَ يــوم - بعــد أن عدتُ من عملي وجدتُ أبو حامد جالساً في البيت، وعادته أن لا يتوقف عنِ الترحالِ وراء تجارته فــلا يكون موجودا بالمنــزل إلا يوم الخميس وأواخر كل ليلة، أردت أن اتظاهــر بالمبالاةِ حقاً وسألته عن تجهّمِ سمته، فقال إنّ أحد أولادهِ قرّر ادخال ابنهِ المعاق إلى مؤسسة خيرية تعنى به فلم يعــد يحــتملُ وجــودهُ معه، وأنا أخافُ أن أشقّ عليكِ به فأنا ومتطلباتي نكفي عليكِ.

في البدايةِ سألته عنه، فأنا لا أعرفُ أولادهُ لأنهم كأهلي يرونني عاراً، ولم يزرني منهم أحد في بيتي حين كانوا يريدون زيــارة والــدهم كانوا يلتقونه في مكان عمله بأحد محلاتِ السجاد،

أخبرني أنهُ شابٌ في الثانيةِ والعشرين، مصابٌ بضمورٍ خلقي في جزئهِ السّفلي، ماتت أمهُ قبل سنتين، وحين ماتت تزوجَ أبوه امــرأة أخرى وأصبح "معاذاً" عبئاً عليها، فطلبت من والدهِ أن يخــرجهُ مــن البيتِ الذي هيَ سيّدتهُ، أو أن يستفيد مما تصرفهُ الدولة له من معونةٍ في استئجارِ شقةٍ له وارسالُ خادمته معه.

قلتُ بلا تردد: لا بأس يسعدني الاهتمام به طالما أن خادمته ستكونُ معه، كنتُ أعلمُ أن في داخليّ شيءٌ ما يرفض لأن ذلك ســيقيّد حــريتي التي منحتها لي طبيعةُ عملِ أبــي حامد، لكنّ

حمامةً بيضاء قالت إنّ ذلك لن يضرّ فقليل من الإنسانيةِ بإمكانه علاجُ روحٍ سقيمة.

انتظـــرتُهُ ليومينِ، وفي الثّالثِ كان أمامي شابٌ مكتملُ في جـــزئهِ العلويّ، يملكُ وجهاً كالحرير، لهُ شاربٌ خفيف، وعينانِ مكتحلـــتان، تبدو رجلاهُ ملويتان في بعضهما من آخرِ الساق، يغطيهما برداءٍ خفيف، ويكسو نظرتهُ حنينٌ جارفٌ لأم رحلت، ولحياةٍ أشعرُ بهِ لا يفهمُ مغزاها.

بدا لي في الوهلةِ الأولى كمن يريد أن يبعثر صمتاً طويلاً في داخلـــهِ، وكلما همّ بالحديث، عادَ فأطرق إلى الأرض، وحرك كرسيهُ إلى الخلف، لم أشأ أن ألحّ عليه، فأنا حتى الآن لا أعرفه، وأمـــام جـــده لم أستطع حتى تعريفه بنفسي، كان شكلهُ الذي أعاقني فأنا لم أتخيلهُ بكل هذا الحسنِ والحزنِ في آنٍ معاً.

بعـــد الغداء بقيتُ وهو لوحدنا، توجهَ جدهُ إلى عمله، بدا من اليوم الأول أن فسحةَ تدخينِ سيجارة بعد الغداء قدِ اقتربت مـــن الصعوبة، كنت أستطيع تركهُ والصعودُ إلى الأعلى حيثُ استطيع التدخين في غرفتي لكنّ أبا حامد لا يعرفُ بعادتي السيئةِ هذهِ، ورائحة الدخان تحبّ احتضان ملاياتٍ أسرَّةِ الشّهوات.

مكثتُ بجانبهِ أحدّق فيهِ بتوتر، وما زلت لم أعرف هل يجيد الكلام أم لا، حين هممتُ بقولِ أولى كلماتي قال بصوتٍ مرتفع "حسناً أنتِ لا تُشبهين أمي!" استغربت من فطنته، وشعرت أنه يقرأ عقلي قبل أن أتحدث، فحتماً كنتُ أريد أن أقول له اعتبرني

كأمـــك سيكون الأمر صعبا في البداية لكن علينا أن نتعوّد على بعضنا.

تلعثمتُ قليلاً وعدت فقلتُ له: حسناً لنكن أصدقاء فعشرُ سنواتٍ بيننا ليست بالمستحيلة أليس كذلك.

ابتـــسمتُ لـــه ثمّ ودعتهُ، وأخبرته أن يتصرف كأنه في بيته فكـــل شـــيءٍ هنا سيكون طوع أمره، كنتُ أريد الخروج إلى السوق أو أي مكان أستطيع فيه التدخين، سألني بكبرياءٍ حزين: هل أستطيع أن أخرج معك!،

بقـــدرٍ كـــبيرٍ من الحسرةِ والكبتِ وافَقت، كانت ابتسامةٌ كـــبيرة تهلـــل لها وجهه وكلمةُ شكراً جعلتني أطيلُ التأمل فيهِ، يا الهي ما أجمله!.

في السّيارةِ وحين ابتعدنا بما يكفي عن بيتِ جَدّه، التفت إليّ وطلبني طلباً غريباً قال: أريدُ أن ألمسَ الهواء هل هذا ممكن؟

حملقـــتُ فـــيهِ باستغراب وقلتُ ولكنّ الجو حار وتكييفُ السيّارةِ أحسن.

صـــمَت و لم ينطق بكلمةٍ أخرى، نظرتُ اليهِ فشعرتُ أنه حزين، لأنني لم أقدّر طلبهُ فقد رأيتهُ طلبا غريباً ومزعجاً في ذاتِ الـــوقت، لكنني عدتُ ففتحتُ جميع نوافذِ السيارة وطلبتُ من الـــسائقِ أن يقود بسرعةٍ أكبر حتى لا أشعر بحرارةِ الجو، انتظَر قليلاً قبل أن يُخرج رأسهُ ويديهِ من النافذةِ وهو يضحك، يومئ بـــيديهِ كمـــن يلـــتقطُ الهواء وأخرى كمن يحضُنهُ، لا زلتُ لا

أصـــدّق، فكرت ربّما أخفى عليّ جدهُ اعاقتهُ العقلية حتّى أقبل بوجـــودهِ معنا، فما يفعلُه غريب، من سيكونُ سعيداً بهواء جدة الجافّ والمثيرُ للتوتر؟!.

لكنّ المفاجأة التي جعلتني آخذهُ على محملِ الجدّ حين قالَ: أريدُ أن أصرُخ، التفتُّ إليهِ بدهشةٍ وحنق وقلتُ: ماذا؟

قال أريدُ أن أَصْرُخ، أَرجوكِ.

حـــسناً يـــا معاذ اصرخ كما تشاء، كان اللهُ في عونِ هذا المزاج.

بدأ يصرُخ ويضحك ويهتزّ جسدهُ من أعلى كفراشَه، بدا كطفلٍ مليءٍ بالأمنياتِ والحلوى.

يـــا الهي!، كان معاذا كأنه سمّي كذلَك لإعاذتهِ من الفرَح، أعجبني سرورهُ تمنيّتُ أن يكون ما زال هناك شيءٌ يمكنهُ ادهاشي واضـــحاكي إلى تلك الدّرجةِ مثله، سألتهُ هل رأيتَ البحر من قبل؟

لم يكـــن معـــي، كررتُ السؤال عليهِ، فقال، مرّةٌ واحده، لكـــنني لم ألمسهُ أبداً، فقرّرتُ دفعهُ بكرسيّهِ حتى نلامس البحر، ذهبتُ بهِ إلى الشعيبة فهناك يستطيع مُقعد لمس البحر، حيثُ لا زحام، ولا قصورُ، ولا عيونٌ مُتلصّصة.

كـــان يأخـــذُ الماءَ في يديهِ ويطيلُ تأمله، غرابتهُ وسعادتهُ المفـــرطة أنـــستاني حـــاجتي إلى تدخينِ سيجارة، وبقيتُ أتأمّلهُ وأتساءلُ لماذا هو هكذا، هل عليّ أن أتعامل مع ذي احتياجاتٍ

خاصّة، لأن ما يفعلهُ جنون، فالماءُ مالح. والمكان الذي جلسنا بهِ ملـــيءٌ بالطينِ والروائحِ الكريهة، لكنه يبدو أرحم من كورنيش جـــدة، لا تستطيعُ الوقوف فيهِ أكثر من عشرِ رقائق تتخيّلُ فيها البحر وتمضي!.

مـــع معـــاذ وصلتُ إلى حقيقةِ أنّ قيمة الأشياء تبدو أكثر وضـــوحاً، أكثـــرَ ابهاجـــاً، أكثر الحاحاً وأهميةً - فقط - حينَ نفقدُها.

فأنـــا ما زلتُ منتظرةً أن أعودَ إلى البيتِ لأفهم، لأصلِ إلى تفـــسيرٍ محـــدد لكلّ هذهِ الدهشةِ من الشارعِ والناسِ والألوان والأصـــوات، كـــان يُصغي لكلّ شيءٍ ويفتحُ فمه كمن يسمعهُ للمـــرةِ الأولى، ثمّ يبتسم، وحين أدار السائقُ شريط أغنيةِ "انت عمـــري" للست، صمتَ بخشوع وكأنه يؤدي صلاةً ما، كان يغمضُ عينيهِ كمن يحلُم، فطلبتُ من السائقِ أن يطيل الرحلة حتى أنتهـــي مـــن سمـــاعِ الأغنية، ولم أتردد عن اخراجِ سيجارتي، وشرعتُ أدخن، فأنا وصلتُ إلى شبهِ يقين أنني مع شخصٍ معاق حـــتى عقلياً نوعا ما، قبل أن نصل بدقائق، انتهى الشريط، فزفر زفرةً قوية وقال "ما أحلاها!، أعيديها مرّةً أخرى أرجوكِ".

وعدتـــهُ وعدا من داخلي مزيّف - لأنني كنتُ قد عزمت على عدمِ أخذه معي مرةً أخرى _ وقلتُ حسنا في المرّةِ القادمة.

كـــان كالمجنون، يمسكُ بوجهي لأرى كلّ ما كان يتحدثُ عـــنه، وكل ما كان يدهشه كانت أشياء عادية، أراها كل يوم،

كما أن حركته الكثيرة، أربكتني وخفتُ أن تثير ريبة أحد، ولأنه كـــان مُتعـــباً فقد تركتهُ ذلِك اليوم لينام، ووعدتُ نفسي أنني ســـأحاولُ فهـــم هذا الكائنِ في وقتِ لاحق، ولأنّ حكايتي مع معاذ، حكايةُ روحٍ عميقة فسأكملها لكَ في رسائلي القادمة، فأنا أكتب لك حتى وقتٍ متأخرٍ الآن، ومازال هناك قدّاسٌ عليّ أن أحضره!.

تـــوجّهتُ سريعاً إلى غرفتي متعطشةً إلى ليلةٍ مليئةٍ بتصفحِ العالِم من نافذةِ مغلقة، ومحادثةِ أصدقائي الافتراضيين، واحتسائكَ في كأسٍ تشبهك فقد كنتُ حريصةً على أن أثمل بك، كسرّ من أسراري الكثيرة التي أخفيها عن أبـــي حامد، الذي اتصل بـــي وقال أنه مسافرٌ ليومينِ إلى ينبع، ولشد ما أراحني من همّ التمثيلِ البائسِ والشفقةِ عليهِ بجسدي لليلتين.

فللحياةِ دائماً وجهٌ خفيّ قد يكونُ من الجمالِ ألاَّ نرتديهِ إلاّ وحدنا، وفي الظّلامِ، خوفاً منهُ وعليه وأنا كنتُ أخافك، أخافُ أن تـــدمن الغربة، أن تتناسى وجودي في قلبك، أن تلوّنك لندن بلـــونها الرّمادي، أن تصفّق يوماً لسياساتٍ تزدرينا نحنُ العربُ أكثر، وكنتُ أخافُ عليك حتى من طيوفِ النّساء، من فتنتهنّ، من قلوبهّن أن ترقّ فتُحبّك، أخافُ عليكَ من مطارقِ ضميري، وحتّى من أولادك حين تضمهم إلى صدرِك.

فنحنُ نمهّدُ – جيّداً – لألمِ الفَقد ونجعلَهُ أكثرَ لوعةً كُلّما تـــشبّثنا – جيّداً – بكلّ ما نُحبّهُ، وأنا تشبّثتُ بك، أكثر من

روحـــي، وفقـــدتُك، فقـــدتُكَ كهوةٍ سحيقةٍ ما زلتُ فيها أسقُط.

التفاصـــيلُ حرفةٌ الأشقياء وأنا شقيّةٌ بك، مسرفةٌ في تذكّرُ تفاصيلك كلّ ليلة، مسرفةٌ في تأمّلِ ندوبك في روحي كلّ يوم، مـــسرفةٌ في الحنينِ إلى دفئك الذي غمرتني بهِ ذاتَ ليلة، سعيدةٌ بـــشقائي، لا أطلبُ عنهُ نجدةً أبداً، فحتّى خلود التي تركت لي رسالةً بهاتفي تقولُ لي، التقيني في مدينةِ الألعاب، وسأعطيكِ حلاً يُنسيكِ جراحاتك الغبيّة.

لم أرد علـــيها، فقد كنتُ أشعرُ برغبةٍ في الرقص، الرقصُ وحـــيدةً كأرملة، الرقصُ وحيدةً كساقٍ تقابلها قطعةُ بلاستيك، الرقصُ وحيدةً كعينِ الأبوابِ الخائفة، كنتُ أنتشي أكثر، هكذا وحدي بتخيّلاتي عنك، وأزيدُ من حركتي أكثر، أتعمّدُ ايلامي، أزفـــر بقوة، أتعرّقُ بحرارة، وجسدي كماكينة اعتلّت فلم تُجدِ عملـــية الـــتوقف، فعلـــتُ ذلك حتى سقطتُ على الأرض، ثم انتحبتُ ببطء، وتركتُ جسدي يأخذُ منك حقّهُ غيابياً، ولا أريدُ إخبارك كم كنت ممتعاً!.

أتـــصفحُ صندوق بريدي بعينٍ دامعه، سالم يحدثُني عن كـــونِ الجمـــادات جزءٌ من روحِ الله وأنها تسمع ووتتأثر، وتتصدّع، وتخدمُ ارادتهُ في تغييرِ الظّلم، ولذلك يتعطلُ جهازٌ حـــين يعلـــمُ أنك اشتريت لهُ بديلا وهذا لايحدثُ صدفة، إنهـــا تحـــبّ مثلنا، وتتعلقُ بمن يملكها ووتصيبها الغيرةُ حين

تهملها، ولوهلةٍ فكرت هل كنتُ عليك "يا عبدالله" أجمد من جماد!.

ونـــسرين تضعُ صورةَ عاهرةٍ تضعُ اصبعها في سُرّتها بنظرةٍ شبِقة، وتكتب في رسالةِ حالتها "قاطعوا بضائع الدنمارك وانصروا نبيكم أيها المسلمون "!.

وآخـــرُ رمزَ لاسمهِ بـــ "قبيلي وافتخر" يضعُ صورة موديل فرنسي شهير، ويكتب في رسالةِ حالته، "أدلل البنت اللي تحبني، رومانسي نار!"

وعبدالمجـــيدِ الإسلامي النادر، التقيتهُ أكثر من مرة وفي كل لقاء أحترمه أكثر، وضعُ لي رابطاً لمقالتهِ في موقع الإسلام اليوم، عـــن حملـــةِ تكفيرِ ومهاجمةِ الشيخ الذي أكتشف بعد كل هذهِ القرون أن الأغاني والموسيقى حلال، عبدالمجيد شابُ مثيرٌ للغيرةِ مـــن تميّزه إلى جانب افتخارهِ بهويته، يقرأ كلَّ يومِ كتاباً، ولديهِ صديقةٌ مسيحيةٌ في لندن، حين زارها وتناول عندها طعام العشاء التقط لهما صورا أراني اياها كانا يحملان الصليب ويبتسمان، قد يـــسافر إلى بلدِ بلا حقيبةِ للقاءِ شاعرٍ يُبهرهُ، أو مفكّرٍ يستهويه، لديـــهِ أصـــدقاءً وصديقاتٍ في كل الدول التي يزورها، ويحرصُ دائمـــا علـــى أن يخبرهم عن الجميل في الإسلام، الذي لم يكن ســـوى هـــوَ بكل مواقفهِ وتصرفاتهِ ومقالاته، إنه يفخر بكونه مسلماً على نحو مدهش، ويفخر بكونه يعيشُ ويتواصل مع العالم بشكل أكثر ادهاشاً.

يغلـــبني النومُ الليلة، والكتابةُ لك طعمها مغرٍ على السهر، مغـــرٍ علـــى الـــتحلل مـــن كلّ التبعات، الكتابةُ لك مفتوحةٌ كهواجسي من بعدِك، متلاحقةٌ كأنفاسي تخافُ أن تنتهي وأنت لم تعـــد بعـــد، فأنـــا حين تظاهرتُ بهجرانك، وحين تجاسرتُ لنـــسيانك، ، لم أكن سوى واهمة حمقاء، فمخطئون جداً أولئكَ الذينَ نقموا على الحبّ؛ لأن التجافي مرحلةٌ مُتقدّمةٌ من اقترافِهِ، وهزيمةٌ أخيرةٌ عن اجتنابه، عنِ التّطهُّرِ منهُ كأجملِ الذنوب.

** ** **

المنتظـــرونَ يا "عبدالله" بؤساءُ كالناسِ في وطني، يتفاءلون حتّـــى بالطيورِ السّوداء، وبمواءِ القطط قبلَ أن تلقى حتفها تحتَ العـــربات، وبالعواصف تضطرُّنا إلى الابتهال أكثر، لكنّ كلّ ما نحصُلُ عليه، هوَ محطّاتُ انتظارٍ جديدة!.

مَن أرادَ أن ينتصر على انتظارهِ فعليهِ أن يُنهيَ حياته، هكذا قالوا لنا، فكلُّ شيءٍ سيأتي، الحياةُ الراقيةُ ستأتي، والحقوقُ ستأتي، والوظائفُ ستأتي، والحضارةُ بكبرها ستأتي، فقط عليكم التّحلي بالصبر، الصبرُ الذي ملّ منّا فنفذَ بجلده، والإحصاءاتُ تقولُ بأن النفط سينفذ بعد خمسين سنة، والأحلام حتى الآن لم تأتِ فمتى تأتِ؟!.

لم نعدُ نركبُ جمالاً، سيّاراتنا أكثرُ منّا، ولم نعد نشربُ لبن النوق، فمشروباتُ الطاقةِ كافيةٌ لا شباع همنا الجنسي الذي لا

يخــبو، ولم نعــد نــسكنُ الخيام إلا كديكورٍ للأصالةِ في أفنيةِ القــصور، لكنّــنا مازلنا بعقليةِ ذلك البدوي الأول، أن يكون هاتفُــك آخر ما وصلت إليه شركاتُ الهواتف المحمولة، لا يعني أنك ستستخدمه في متابعة آخر أبحاثك ودراساتك، بل يعني أنك ستستــضيفُ فتاة جديدة بسارتك الفارهة، وستستخدم هاتفك أمامها لكسب احترامها، واقناعها بتحضّرك.

الــنّاسُ هــنا نظيفونَ بقلوبٍ قذرة، أنهم في الشوارع، وفي أعمــالهم، وفي بيوتهم حتى، مبالغون في التأنق والنظافة، من بعيد هــم أنظــف الناس، كلما اقتربت وجدتهم يحملون قلوبا مملوءةً بالحــسد، والحقــد، والشماتة، لا يصفّقون للنجاحِ هنا، كلهم يــزدرونه، يقلــبونه إلى طــرفة، لا يزورون قبورَ أحبائهم، ولا يتأملون لوحةً بعمق، ولا يطيلون النظر إلا إلى ساعاتهم!.

سيكونُ اليوم لقائي مع سالم، لقد اتصل بــي وأخبرني أنه في جدة، فرصة جيّدة لرؤية هذا الكائن الخرافي عن قُرب، كنتُ سأكتب لك عن معاذ كما وعدتُك البارحة، لكن يبدو أن لقاء المخصيّ سالم سيكونُ أولى سطوري لك اليوم، كل اللقاءاتِ التي يــسبقها تخيّلٌ ما تصبحُ مقلقة، تولدّ التوتر، والهواجس، أسهلُ اللقــاءاتِ تلك التي لم ترتبها الأيام، وحبكتها الصّدفة، تساءلتُ بداية ربّما كان امرأة، من يثبت لي كونه رجلاً، ربما كان خيالاً، ثم لمــاذا علــيّ أن التقيه، هل أعرفه؟. أم هيّ رغبةُ داخليةٌ بالغةُ التّطفل، ليكن من يكن، ما شأني أنا، إنه شخصٌ يدعي أنه الله،

ثم يدعي أنني جزء من روح الله، ثم ماذا... حسناً خرافاته كثيرة، لكـــنني أريد أن أراه وكفى، ثمة أسئلة معلقةٌ لا اجابات لها أكثر من الحقيقة، حسناً سأحملُ أوهامي أنا أيضاً لأراه.

قالـــوا إن الـــصّمت حالةُ عزاءٍ ما على صوتٍ ضائع، على حقـــيقةٍ مذبوحة، وأنا أتساءل هل هذهِ الثرثرةُ والضجيجُ الذي يسودُ حياتنا اليوم هيَ احتفالٌ باذخٌ بوضوحِ أصواتنا، ونـــزاهةِ حقائقـــنا؟! ام ردةُ فعلٍ عنيفةٍ عن حجمِ التزييف والخَرسِ الذي لحقَ بنا، ومُورِسَ ضدّ وجودنا؟!.

يُمكنُ لشخصٍ منّا أن يتحدّث لثلاثِ ساعاتٍ عن سيارتهِ الجديدة، عن مسلسلٍ دراميّ، عن ارتفاع الأسعار، عن أي شيءٍ سوى الحقيقة، عن أي شيءٍ سوى ذاته المُهملة كبيتٍ قديم، كلّ الأفكـــارِ التي يسمحُ بتداولها فيه هي نفسُ أفكارِ جدهِ، وأجدادُ جَدّه، ليس مسموحاً لنا بالثرثرةِ المفيدة أبداً.

يتـــساءلُ سائقُ صديقي عبدالمجيد مرّة عن كونه يقرأ – حين أقلّـــهُ في شـــوارعِ الرياض –، كان ذلك السائقُ سوريّ، قال له باستغراب "سعوديٌّ يقرأ!"، كانت أوقح كلمة تلقاها عبدالمجيدِ في وطـــنه، قال لي: قلتُ له بثقة، نعم سعوديّ يقرأ لحسنِ الحظ، لكن أنت بكلّ هذهِ الوسامة، والأناقةِ، سأسأُلك أن تعدد لي فقط ثلاثةُ شعراء سوريين، لم يستطع أن يعرف سوى نـــزار قباني الذي تعرفهُ حـــتى عجوزٌ أميةٌ في قريتنا، قال لهُ عبدالمجيد سأعدد لك بدلاً من الواحد عشرة وسأردد لك بعضاً من شعر كلٍّ منهم.

هــؤلاءِ الأجانب العرب القادمين من الشّامِ تحديداً، أخذوا منا جزءاً من وطننا، قدموا غرباء فأصبحوا أهل دار، أصبحنا نحنُ الــذين نخـــدم عندهم، موظفون في شركاتهم، نطلب وساطاتنا منهم، ونحملُ لهم حقائبهم في المطاراتِ والفنادق، تذكّرت هذا وأنـــا أمـــرّ بشوارع جدة التي يحتكرُ الشوامُ نصفها الذهبـــي، وألقيتُ عليهِ السلام.

الآن بعد عودتي إلى المنـــزل أستطيعُ أن أكتُب لك كم كان لقائي بسالم غريباً مثله، كان يرتدي ملابس شتاءٍ مبالغٍ فيها في جو أقرب للحرارة، شعرهُ طويلٌ بشكلٍ قذر، ودمامتهُ لا تترك لمتسائلٍ مجـــال عـــن لمـــاذا حرم نفسه من رجولته، لم تقبلهُ النساء، هكذا فكّـــرت، لم يمـــد يدهُ لمصافحتي وكان يتعمد الإشاحة عن وجهي حين حييتهُ، كان معهُ صديقةٌ قدمها لي على أنها آلهةُ التأمل، كانت ســـيدة شابة لها ملامح عادية، وجسمٌ ممتلئ، جلستُ قليلاً محدقةً إلـــيه، وهو صامتٌ يتحدثُ بصعوبة، ويداه ترتجفان يبدو أنها رجفةٌ مزمنة، قلتُ له: حقيقيٌ أنت اذا. ظننتُك دُعابة!.

قال: يوماً ما سيحلُّ العذابُ على المكذّبين.

بقـــيتُ لربعِ ساعةٍ كالبلهاء، أحدقُ في أشخاصٍ ما زلتُ متيقـــنةً أنهم افتراضيون، ولا أخفيك لستُ من النـــزاهةِ أن لا أنظـــر، صدقاً لقد مررتُ عيني أكثر من مرةٍ إلى مكان آلته، هي حماقة لكنني فعلت، بعدها اعتذرت بموعدي مع طبيب الأسنان، ونفذتُ بجلدي، كان لقاءً مزعجاً ومليئاً بالسأم.

حـــينَ كـــنتُ التقيك، كان قلبـــي يزيد من نبضاته، كأنه يريدُ تسريع قدومك، كأنه يريدُ استحثاث العمرِ إلى الأمامِ حيثُ أنت، معك عرفتُ كم هيَ الثواني طويلة!، وفي انتظارِك رهنتُ عمري، وأمنياتي، وملابسي الجديدة، وعطري المفضّل.

حين تأتي، ستغنّي الأرض، وتصبحُ نديةً برائحةِ أنثى، حينَ تأتي، ستولدُ الأحلامُ من جديد، وستُثقِلُ النّساءُ العواقر!.

خلـــود تُـــباغتُ خلوتي الآن لتدفع إليّ بهمّ جديد، بخطيئةٍ طازجـــة، قبل أن تأوي للنومِ وفي الغدِ هي كائنٌ جديد، كانت تـــشتم، وهـــذا ما تفعلهُ دائماً لكنّها هذهِ المرة تشتمُ نفسها، لم أسألها فهي دائما تُكمل حديثها دون أن تنتظر اصغاء من أمامها، قالت: الحقير أحضرني إلى سريرِ زوجته!.

مَن..؟ أيّ حقيرٍ من كلّ هؤلاءِ القابعين حولك؟!،

خالـــد، أو هكـــذا اسمى نفسه، الرقيبُ الذي تولى مهمة اخراجـــي سرّاً في قضيةِ الخلوةِ الأخيرة، وعدني أن تبقى سراً إذا جئتهُ كل خميس، حين ذهبتُ إليه اليوم، جاءت زوجته وأنا معه بالغرفة، أنا مخطئةٌ لأنني لم أشترط وجودنا بمكان أكثر خصوصية، فهـــذه أكبر اهانة تعرضت لها، امرأته بصقت في وجهي، كنتُ سأقول لها، بصقةٌ واحدةٌ لا تكفي، لكنني نصحتها إن كان ذلك الرقيب سيبقى معلقاً قضيتها كقيدٍ في رقبتها فلتذهب لأكبر منه وتتحرر منه، وليكن معها دليلٌ حسي لإيقافه، أردتُ سؤالها: هل كلّ هذا شوقٌ للمتعة، شبقٌ إليها، أم هو سلوكٌ استمرأتهُ فباتت

لا تـــرتاحُ إلاّ علـــى كلمـــات الرجالِ تهينُها وتركلُ مؤخرتها المُحترفة!، في الحقيقةِ لم أبحث عنْ جوابٍ، فخلود لوحدها تحتاجُ إلى أمهـــر معالجٍ نفسي، ليعرف ايقافها عن اراقةِ ذاتها كبرازٍ في طريقِ العابرين.

قلـــتُ لها اصعدي الآن وسيكون غدا جديداً، كما تقولين كـــلّ مرة، ولكن لا تنسي، اغلاق الباب وراءكِ، فأنا لا أحبّ الأبـــواب المفـــتوحة بالنسيان، وكنتُ أتعمد اخراجها قبل أن يستيقظ معاذ فلي معهُ ومعها حكايةٌ باتت مؤرّقة.

فكّرتْ، ما هو الذي يجعلُ الحياةَ بين الرجلِ والمرأةِ نوعاً من السجال، والحربِ الخفيةِ على مدى التاريخ، ووصلتُ إلى نتيجةٍ تقـــولُ بأن السببَ أن الرجل يقضي حياتَهُ وهو يُحاولُ أن يثبت للمـــرأة رجولته، وتقضي المرأة عمرها وهي تحاولُ دحض هذا الإثـــبات، هل كانت خلود تطبيقٌ عملي على عملياتِ دحضٍ مستمرّة؟! ربّما!.

الـــرّجل هو الذي جاءَ بالأديان، وهو الذي وضعَ قانون الأخـــلاق، وهـــو الـــذي وضـــع قانون التفكير، بكلّ هذهِ الامتـــيازات استطاع على مرّ التاريخ أن يثبت للمرأةِ كم هو فحـــل، واســـتطاعت أن تبقـــيهِ في دائـــرة الشّك، والقلقِ، والهـــواجسِ، والتّـــشهي، فكلّما أحكم عليها الخناق بقوانينهِ وســـيادته، زادتـــهُ اختـــناقاً بفتنتها، وتفاصيلها، واخترعتِ المكياج، لتوهمه أكثر.

كانـــت خلـــود حقيقيةٌ على سريرِ الملذّات، يغريها الرّجلُ الـــذي يعطـــيها أكثر، وتشعرُ كأنها تعيدُ للمجتمعِ ذي العيونِ المـــرتابةِ الديـــون الكثيرةُ منذُ وجدت نفسها كائناً مُحرّما كما تقـــول، في فتـــرةٍ حين سال الدمُ من بينِ فخذيّ، قرصتني أمي مذكّـــرةً أن اللعبَ خارج البيتِ لم يعد مسموحاً، طوال حياتي وأنـــا أسمعُ أنني كائنٌ يقاسُ بما بين فخذيه، بجدوى هذا العضو، يُدفـــعُ لي مقابلهُ في الزواج، كأي عاهرةٍ في شوارعِ روسيا، وأنا أســـتطيعُ المـــزايدة، وأستطيعُ أخذ الضمانات كأيّ سلعةٍ قابلةٍ للتلف!.

حـــينَ تـــزوّجتُ كـــنتُ بريئةً، كنتُ انتظرُ معهُ علاماتِ طهـــري، كان حريصاً على أن تكون الأنوارُ مضاءة، لا يُمكنه المجازفةُ بكلّ ذلك المالِ مقابلَ ثُقبٍ مفتوح!.

وحينَ تأكدنا معاً. عاد طبيعياً، توقّف استنفاره، اطمأن إلى أن بـــضاعتهُ مـــا زالـــت مختومةً من المصنع، وأن حتى تخيّلاتي الـــصغيرة للفنان الهندي شاروخان حين كنتُ مراهقة لم تبقر ذلـــك المقدس، رغباتي المراهقة كنت أكبتها، أخافُ على تلك الغـــشاوة الـــرقيقة، أغتسلُ وأنا خائفة، أبعد الماء وأرشه على يـــدي، ثم أمـــسح المكان بيدي فقط، وحين أريد أن ألعب في البـــيت أبقى غير متوازنة، هناك شيءٌ لا بدّ من الحفاظ عليه، كـــثيراً ما استيقظت هلعةً في الليلِ من كابوسٍ أرى فيه ثُقبـــي وقـــدِ انـــشّقّ كشلالٍ من الدم، أتحسسهُ برفق فيطمئنّ قلبـــي

وأعودُ إلى النّوم، كان هذا الذي حرمني من تفاصيلِ حياتي، من متعي الخاصة، من قفزةٍ أشعر معها بجسدي، فكيف لا تريدين منّـــي – بعد أن عتّقهُ زوجي بشهادةِ طهري – أن أسرف في اهانته، كما أسرف في اهانتي سنيناً من عمري، أن أستفيد منه كما استفاد منّي، وأن أخدع بهِ نفسه مجتمعاً يقيسُني بنظافته من سوى ماءِ زوجي!.

خـــذي عندكِ مثلاً الرجالُ يوقعون ورقة ومبلغاً زهيدا من المـــال، ويـــضمرون في انفسهم نية الطلاق، يحصلون على متعة جديـــدة لمـــدة اسبوع، ثم ينتهي أجلُ الورقة، ويمضون ينفضون الغـــبار عن ضميرهم، وهي تمسحُ الدموع عن عمرها المخدوع، لـــيس هـــناك فرقٌ بين استمتاعي واستمتاعه سوى ورقةٍ خرقاء واحدة!، أن يكون الفرقُ بين طهرهم وفجوري هو مجردُ ورقة، فأنـــا أفـــضّل ممارسة ذاتي بلا اثباتات، المتعةُ خُلقت لتنتهي لا لتثـــبّت، تذكرها يُصبحُ ألذّ من عيشها مرة أخرى، اللذةُ خلقت لتتـــسامى ســـريعاً، لتزورنا على عجالة، وأنا أجيدُ ارتقاء تلك اللحظـــة، أجيد اصطياد حصّتي من المتعة، كما يفعلُ الرّجال، لا أســـتطيع الوفاء لرجلٍ واحد، لأن ذلك سيحرمني فرصةَ انتشاءٍ جديـــدة، سمـــاءٍ أعلى، وضعوا لأنفسهم أربع شهوات بورقة، ووضـــعتُ لنفـــسي عـــشر بلا أوراق، عشر بلا غشاءٍ يخرقون انـــسانيتي به، بلا جسدٍ واحد باردٍ عليّ أن أتحمّله، مقابلَ فواتِ مُتعي المستحقة من الحياة.

كلّ كلمات خلود كنتُ قادرة على استماعها، إلا تلك التي تدور حول معاذ، فلا يمكن أن أسمح لها أن تلوّثهُ أبداً.

** ** **

كياسمينةٍ هيّ ابتسامةُ معاذ حين يكتشفُ شيئاً جديداً عليه، وكعالمٍ واسعٍ أنا بالنسبةِ له لا يفوّتُ فرصةً دون اقتناصِ اجاباته مني، أنا البائسةُ التي أحتضرُ كلّ يوم على سريرِ الرغباتِ القاتلة، وأقــرأ لنيتشه وأنا في السيارةِ مخافة أن يلمحني أبو حامد فيشك بعقلي، وأقتني جيتارا أخبئهُ تحت السرير وحين يأتي وقتٌ درسي مع المدربةِ اللبنانية قريبة صديقتي ربما أخرجه بحذرٍ حتى لا أتلف أوتــاره، أنــا بكـــلّ بؤسي حين أُخرج عباءة الرأسِ والنقاب والقفــازين لأرتديها بحرص كلّما زرتُ بيت أبـــي ببريدة، أنا بكلّ هشاشتي أدسّ راتبـــي كاملاً بجيبِ السائقِ ليحضر لي شراباً معـــتّقا مـــن صــــديقٍ يعرفه فيسرقُ نصف نقودي ويشتري لي بالنصفِ الآخر وأنا أعرفُ وأتجاهلهُ حتى لا يُفشي أسراري، أنا الـــتي أطلبُ معسّلا في المقهى ثم أبقى أتلفّت حولي كلصّ كبير مخافـــة أن يـــراني أحد مع أن أحدا لا يعرفني هنا، وكل الذين أعـــرفهم لا يعرفون أكثر من القهوة العربية والتمر، أنا بكلّ هذا الخوفِ والتّخفي، واستراقِ الحياةِ من الحياة، عليّ منذُ اليوم الأول الـــذي حـــلّ بـــهِ معاذا في بيتي أن أعلمه الحياة، أن أساعدهُ في اســـترداد نـــصيبهِ منها، هكذا بكل ما تعنيه الكلمة من اتساعٍ

وتـــشعبّات، فقـــد جلستُ معه في المرة الأولى بعد عودتنا من نـــــزهة البحر التي بدا فيها غريب الأطوار، اقتربتُ منهُ وسألته برفق: معاذ هل كنتَ تخرج من البيت كثيراً؟ هل سبق أن رأيت كل ما أشرت لي عليه وأنت مُندهش، أم أنك تحب التعليق دائما على كل ما تراه؟

ردّ علـــي: مـــنذ ولـــدت لا أعرف سوى غرفتي والحمام المخـــصص لي، وأمـــي وأربع خادمات تعاقبن على خدمتي بعد موتها، خرجتُ مرة مع عمي الكبير إلى البحر، كانت ليلة عيد، تذمرت مني بناته كثيرا، أعقت استمتاعهم بالتسوق، فأعادوني ثم خـــرجوا مرة أخرى، تلك المرة الأولى التي رأيت فيها الشوارع والـــناس، كـــنت في الثامنة عشرة، كان أمراً مبكياً لي أكثر من كـــونه مدهش، شعرتُ أنني أريد أن أعود إلى أمي فقط، أبـــي قـــال لي مرة أنت لست رجلا كاملاً واللهُ خلقك ليعاقبني على ذنب كبير ارتكبته، وأمي عللت لي كلامه بأنه كان غاضباً مني.

خـــرجتُ إلى الـــشارع مرة أخرى بعدها بسنة، كنت قد رجوت الخادمة أن تذهب بـــي إلى البقالة -التي أشاهدها برفعي علـــى كرســـي آخـــر تضعه لي أمي لأرى كيف يبدو الشارع والـــسيارات-، خـــرجت بـــي والتقانا أبـــي في أول الشارع، كـــان غاضـــبا ومهتاجاً كعادته، أعادني بسرعة وهو يشتمني، وصفع الخادمة على وجهها، وفي اليوم التالي لم أرها في منـــزلنا ولا في ما تلاه من أيام.

من معرفتي بمعاذ من كلماته البسيطة، عرفت أنني أمام رجلٍ خـــام لم يُدجّن على شيءٍ مما يربـــي عليه الرجالُ أبناءهم هنا، نقـــصُه جعل أبوه ينظر إليه كخسارة، كرجلٍ زائدة، كخطيئةٍ مجـــسدة في انسان، امتعض منها فعزلها عن الحياة، وعن الناس، وعن حتى فرصتها في اكتشاف الأشياء من حولها، تلك الخطيئةُ لم تكـــن سوى معاذاً، يعرفُ أن الصلوات خمس، ويتقن قراءة الفاتحة وقصار السور، حتى في الدين اكتفوا بتعليمه الحد الأدنى، كانـــوا يرونه كثيرٌ على كلّ شيءٍ، حتى آيةٍ تطفئ لهيب روحه، أمه مسكينة وأمية، كانت تعتني به كجسد جيداً، وفرت له كل ما يحتاج إليه، لكنها لم تخبرهُ يوماً ما معنى أن يكون رجل!.

قد تستغربُ حين أقص عليك تفاصيل حكاية معاذ، كيف يكونُ وصل إلى كل شيءٍ باستراق السمع، بألغاز كثيرة في عقله البكر لا يفهمها، ويسألني عنها، عن بداياتي في اقتحامه، وتعليمه حتى الكلام.

ذلك اليوم سألني: كنتِ تقرئين. هل هو قرآن، كانت أمي تقرأ دائما كتابا تقول بأنه قرآن.

لا يا معاذ كنت أقرأ كتابا في الفلسفة، كتاب يتحدث عن الـــتفكير، كـــيف نفكر في كل شيء حولنا، كيف نطلق للعقل شـــهوة الاكتشاف، ما نفكر به ونحنُ صامتين، ما يقلقنا أننا لا نفهمه، عن الكون الفسيح، والإنسان، والحب، والموت، والحياة، والحرب والسلام.

كان صامتاً يحرك رأسه كمن يريد أن يطيل السماع، كمن يريد أن يسجل كل كلمة، قال لي لم يكن أحد يتحدث معي في بيتـــنا، كانـــت الخادمة تخبرني فقط أن أكلي جاهز، أو حمامي جاهز، كانت تغسلني باشمئزاز، ولا تتحدث كأمي كثيراً.

أمـــي كانـــت تقول لي بأنها تستغفر، وتدعو لي، تتحدث بكلام لا أسمعه، وتحكي لي في الليل حكاية يوسف واخوته، هل أحكيها لكِ؟.

أعرفها يا معاذا، هل حكت لك حكايات أخرى؟

لا، كانت تكرر لي هذه الحكاية كل يوم!.

حـــسنا سأحكي لك كل يوم حكاية جديدة، وسأعلمك كـــل ما تريد معرفته، صعقني أن أول سؤالٍ سألني اياهُ هو، لماذا قال أبـــي أنني عقاب؟ لماذا خلقني الله هكذاً؟ هل أخطأتُ حقّاً حين جئتُ هكذا؟!.

صـــمتّ ووعدتهُ أن أجيب عليه في الوقت المناسب. ذلك اليوم ابتدأنا معاً تعلم الحروف، حرمه كبرياء ابيه أمام عائلته من حتى أن يعلمه القراءة والكتابة، كانت الحياةُ كثيرةً على معاذ.

ابـــتدأنا بحروف اسمه واسمي، كان رائعاً في التّعلمِ وسريعاً، كان كورقة بيضاء كل ما اكتبه عليها أراه في اليوم الأخر، عند الـــصباح وجدته ينقش الحروف التي علمتها له، ويرسم رأساً له عينان وفم على هيئة نقط، وشعرٌ على شكل خطوط مستقيمة، قـــال لي إنها أنا، وكان سعيداً بأول رسمة يرسمها منذ ولد، كانً

مازالـــت لديـــه صعوبة في الإمساك بالقلم، ويشعر بألم في يديه بـــسرعة، في الأيام التاليةِ كان يحسب وقت عودتي من العمل، وينتظـــرني بشوق لإكمال دروس الكتابة، في أثنائها كنتُ ألقنه كل أمور الحياة كطفلٍ يسأل أمه وهي تجيب، ثم لا تنتهي الأسئلةُ أبداً، يسألني لماذا أيدينا مشققةٌ، ولماذا لدي شعر في وجهي وليس لديكِ؟ ولماذا لا نرى الله؟ ولماذا تنامين مع جدي في سريرٍ واحدٍ؟ ولمـــاذا تضحكُ الخادمةُ حين ترى ما بين رجليّ؟ ولماذا أشعر بهِ يتضخّم؟ ولماذا أشعر بأن ذلك يعجبني؟ لماذا يمتعني أن تمسكه؟ ثم اقـــضي الليل كله في تحريكه حتى ينـــزل منه سائل لذيذ أشعر بعده بنعاسٍ وخدر؟

في خلالِ ستةِ أشهر فقط استطاع الكتابة والقراءة بطلاقة، وكانت أولى كتبنا هي قصص الأطفال اشتريها له بعناية، بعد أن انطلـــق في القراءة أصبح يقرأ معي كتبـــي، في أثناء تلك السنة، شـــاهدنا معـــاً الأفلام الرومانسية، وعزفنا معاً على يد المدربة، ودربته على استخدام الانترنت، وسهرنا الليل بطوله نتحدثُ عن مؤامـــراتنا الـــشقية على جَدّهِ، وكيف نقضي الغد بين السوق ومقابلـــة صديقته التي تعرف عليها في كتاب الوجه، كانت سنةً حافلـــة بالإنجاز مع معاذ، علمته أننا خلقنا أحراراً، وأننا نحن من يقرر إن كنا سنعيشُ أو نموت، نحن من يقرر إن كنا سننجح أم نفشل وليست هيئاتنا وظروفنا، كثيراً ما وضعني معاذ في مواجهة مـــا أعلمـــهُ له فذاتَ ليلةٍ جاءَ إليّ بعد أن نـــزلت اليه وصنعت

قهوتـــنا التي نحب احتساءها ونحن نشاهد فيلم السهرة ثم نقضي البقـــية في الكلام والقراءة والعزف، قال لي بكل حزم: أريد أن أرى نساءً عاريات؟

هاه؟ ماذا تقول؟ حسنا لماذا؟

لماذا؟ أنا لا أعرف حتى الآن كيف يبدو؟ كيف شكله؟ مـــرة رأيت امي عاريةً من الخلف؟ كانت تشبهني؟ ماذا عن الأمـــام أليس من حقي رؤية كيف يبدو؟ هل يشبه ما لدي؟ أنـــت تقـــولين بأنه يمكنني فهم شكله من مجموعة صور غبية لرسومات عرضتها عليّ؟ وأنا مللتُ تفتيش الدمى في غرفتك الـــسريةِ، ولا أجدهم يصنعون لها شيئاً؟ أعرفُ أنني أريد أن أضع ما لدي فيه لكن كيف يبدو؟ الممثلات اللاتي أراهن معكِ أشتهيهن لكنني لا أعرف حتى الآن كيف يبدو، كل الوصف الذي وصفتيه لي قبل أشهرٍ لا يكفي، بالأمس كتبت في محرك الـــبحث، امرأة عارية، و لم أجد شيئاً عن المكان الذي اريده بالتحديد.

تلـــك الليلة وقفت مذعورة من اصراره، بين ما علمته وما أســـتحي منه، بين ما ينبغي وما لا ينبغي، قلت له حسناً اتركني لأفكـــر في طـــريقة، لم أعلم معاذا أن يستحي من غرائزه كان يخبرني كم مرة مارس العادة السرية البارحة، ومن هي التي تخيلها معه، الآن أنا التي استحيت من جرأته وأنا التي عليّ أن أريه أول امرأة عارية!.

وضعتُ لهُ فيلما في ايميله، ورابطا لمجموعة صور، وتركت لــه المكان تلك الليلة، عائدة أدراجي إلى حيثُ يسكن البرد جــسدي بجانب أبــي حامد، وغفوت وأنا أبكي ولا أدري لماذا؟.

بعد سنتين من تلك البدايات المتعثرة، والحمقاء، والعجولة، والــبريئةِ، من معاذ، ها هو الآن يشاركني مقعدي أمام التلفاز، ويحدثني عن المقامات، وعن عبقريةِ بليغ حمدي والسنباطي، وعن دهشته الأولى مع "انت عمري"، وعن الكسورِ أجبرها له في اولى قصائده إلى حبيبته التي تركته حين اكتشفت اعاقته، فصورته في صفحته ببرنامج التعارف تكفي أي فتاة تتعطشُ للجمال أن تؤمن بكمالــه، فمعاذ أجمل شاب رأيته في حياتي، لكن النساء يردن رجــلاً يــباهين بهِ في الأسواق، والمطارات، والمجالسِ، لا وجهاً يتفيأنه في أجهزتهن المحمولة.

قــبل فتــرةٍ لا أذكرها بالتحديد، جاء والدُ معاذ إلى بيتِ والده، بعد سنتين وزيادة، لرؤية ابنهِ المنفيّ، لمحته قبل أن يدخل، كان رجلاً طويلاً في كل شيءٍ ما عدا ثوبه، وجهه طويل ولحيته طويلة، ونظارته تبدو لي طويلة، وساقاه نحيلان مثيران للشفقة في ثوبٍ يبدي منهما أكثر مما يُخفي، يحمل في يده مسبحة، ويصرخ بأعلــى صوته، يا ساتر، يا ساتر، مع أنني حسب علمي لم أكن أحــرم عليه، لكنه لا يريد أن يراني، فسمعتي تشوهت إلى الأبد، وزواج والــده مني، كان رغما عنهم جميعاً، لم أبالِ، وبقيت في

أعلـــى السلم أسمع ما سيقوله لابنِ الذي لا يعرف منه سوى أنه جاء إلى الدنيا عقاباً له!.

سلم عليه، وقال كيف حالك يا شاطر؟

رد معـــاذ: لم أعد شاطراً يا أبـــي، أنني أعرف الآن أنك أنـــت الذي كنت عقاباً لي ولستُ أنا، كنت عقابا لي ولأمي، كنت خطيئتُنا التي لا تُغتفر.

كان يحدقُ في ابنه ولا يكادُ يميّزهُ، لا يكادُ يصدّقه، يتحسس رأسه، ويمسك بأكتافه ويسألهُ:

هل هي ساقطةُ جدك التي أخبرتك بكلّ هذا؟!.

من أين تعلمت كل هذا يا تربية الحريم؟أنا أبوك ألا تفهم هذا؟

ردّ عليه: السيُّء في الأمرِ أنني أصبحتُ أفهم!.

أيـــن جدّك؟ أخبر تلك العاهرة أن تنادي على أبـــي أريدُ محادثته وحدنا.

بـــدا منـــزعجاً جداً، بينما معاذ هادئٌ بثقةٍ يحدّقُ إلى أبيه، كأني به يراه من جديد من زاويةِ أخرى، من منظور آخر.

جلـــسَ بجانبه وحدّثهُ بنبرةٍ هادئة: اسمع اليوم سنخطب لك عروساً، ستتزوج يا رجل!

رد علـــيه بسرعة: لكنك أخبرتني يوما أنني رجل ناقص، ثم من قال لك بأنني أرغب في الزواج.

عاد مهدداً بصوتٍ مرتفع: اسمع أنا خطبتها لك وستتجهز الليلة لزيارتهم وهذا كلامٌ نهائي، من أنت لتعصي أوامري، ثم جزا

الله أبـــوها كل خيرٍ أن قبلت بك، صحيح أنها مصابة هي أيضاً بحـــول شديد في عينيها، ولذلك كبرت و لم تتزوج، لكنها امرأة صالحة، ابوها واخوتها رجالٌ فاضلون، ومتدينون، وهي ستعينك على نفسك ما بقي من حياتكما.

قال معاذا بنفاذِ صبر: ليست هي من أريد، لا أعرفها، لست مستعدا للزواج، لا.

بزفرة وإطراقه قال ابوه: معاذ حبيبـــي أنا أعرف ماذا تريد، جـــدك أخبرني عن فراشك المتسخ من كثرة الاستمناءِ الفاسق، أصـــبحت رجـــلاً، وعليك أن تتزوج، عليّ أن اقوم بشيءٍ من أجلك، الزواج واجب ديني، وعليك أن تستجيب، هل تفهم؟!. لن أكرر كلامي.

كـــان آخـــر ما سمعتهُ قبل أن يكتشفني أبو حامد معلّقة في أعلـــى السلمِ كجاسوسةٍ: معاذ يقول ومتى عرفت يوماً ما أريد حقاً يا أبـــي؟!.

بعد أن غادرهُ أبوه، آخذا عليهِ وعداً باصطحابه وجدهِ بعد صلاةِ الجمعةِ القادمة إلى منـــزلِ عروسهِ الاجبارية، جاء معاذ إليّ ككـــلّ مرةٍ، محمّلاً بالأسئلة، واليُتمِ، والتّمرّد، ويا للبائسِ حينَ يُجـــالسُ بائـــساً مثله، كلّنا مُقعدون يا معاذ، كلّنا اختيرت لنا حياتُنا مُسبقاً، كلّنا رُسمت خطوط حركتنا بدقّة، كلّنا نملكُ نصفاً علوياً يحملُ الأسئلة المحرّمة كأبطالِ ثورةٍ قتلى، كلّنا سنذهبُ بعد أيّ جمعـــةٍ لنتزوج الحياة التي أرادوها لنا، وسنحتفل، سنحتفلُ

كمجـــذومين، وســـنحتفلُ كسُكارى، وسنحتفلُ كابتسامات الـــصّورِ الـــصّفراء، سنحتفلُ كما رسموا لنا الاحتفال وسنعودُ محمّلين بخيبات جديدة نُخبئها كوقودٍ لأحلامنا الخرساء.

أهكذا هيَ حياتُنا ان لم نرحل، نُهاجر مثلك يا "عبدالله "؟!.

لا نخـــتارُ منها شيءٍ، نصقلها بالأحلامِ فتفرغنا في قوالب الكوابـــيس!، نـــسقيها دماءنـــا وأمنياتنا وتحرقها كأيٍّ كومة نفايـــات!، أن تكون عاجزاً حتى عن أن تكونَ انساناً كاملاً، ثمَّ تدفـــع مـــن نقصِك لكمالهم، ومن حقوقك لترفهم، ومن فقرك لغناهم، ومن وجودك لخلودهم، فأنت معذّب كبير، مسروقٌ عن آخرك، مزروعٌ كجثّةٍ في أرضِ الأحياء.

كئـــيبٌ هـــو الوطنُ الذي لا طعم للحقيقةِ فيه، لا صوت للـــبكاءِ فـــيه، الباكونَ هُنا عليهم أن يحذروا ازعاج السعاداتِ المـــسلوقة كوجبةٍ سريعة، لا يوم للجنون في أيامه، ولا ترى فيهِ شارعاً يتعانقُ فيهِ حبيبان، الأضواءُ الخافتةُ مشبوهةٌ، محمّلةٌ بوزر النوايا، لا أضواء خافتة بعد اليوم في الرياض، يمكنكم أن تطفئوها على حسراتكم في بيوتكم، قرب وسائد الأرق، لا تحبّ الرياض المتأملين، تجهرُ بقمعها، وبأنوارها التي تمتلئُ ظلاماً.

وعلـــى عكسِ العالم، النّاسُ هنا مولعون بالتّقديس، تقديسُ جلاّديهـــم، شعبٌ مازوخيّ بالكامل، شعبٌ مثيرٌ لقدرٍ كبيرٍ من الأسى، لدينا رموزٌ بشرية، نبالغُ في عبادتها، حين تكونُ الأفكار التقدميةُ مقدساتُ الآخرين، ترانا نلعقُ قدم أحدهم، نتزاحمُ عليهِ

لتصويره يلقي علينا أكاذيبه الجديدة، نصلّي من أجل أن يكذب علينا أكثر!، من أجلِ أن يسرقَ منّا وجودنا أكثر، من أجلِ أن يكبُر هو أكثر.

يا آلهتنا الكثيرات، من أين لنا بقرابين ترضيكِ أكثر، وكم نحتاجُ من جثاميننا لنصل إلى رأسِك نقطعهُ؟!.

نحنُ في هذا الوطن كائناتٌ مؤجّله، نعيشُ الوهم لأنهُ أخفُّ وطئاً من قسوةِ الحقيقة، من ثمنِ الحقيقة، من صعوبةِ الحقيقة، ثُمّ ننسجمُ في تفاصيلِ الوهم فنزيّنهُ لأنفسنا، نرتّبُه كلّما تبعثَر، وننتقلُ بهِ في داخلِنا كزجاجٍ نحميهِ من رَشَقاتِ الواقع، ويُرعبُنا أيّ تصادُمٍ مفاجئٍ ومُزعج معَ أيّ حالةِ وعيٍ ونعيش!.

اذكُر مرّة أنني سألتُك "هل تستيقظ صباحاً في السادسة تحديداً أيام اجازتك بلندن؟ كنتُ أعرفُ أنّك ستقولُ نعم، وكنت أريد أن أسمعها منك أيضاً، لدينا أطول اجازاتٍ في العالم، نقلبها عمداً نعبثُ بنظامِ الكون، نُجبرُ الليل أن يبقى متيقظاً حيثُ تعيشُ خرافاتنا، وأحلامنا، وأقنعتنا، وملذاتنا الشاذة، ومحابرنا المشبوهة، ونغمضُ عيني النهارِ المُبصرتين، ننامُ كعاطلين عنِ الحياة، الناسُ هنا "يا عبدالله" وجدوا أنفسهم مقلوبين باتجاهِ الهامش، فاحتالوا على الكون كلّه، على الشّمسِ والقمر، على النورِ والظّلام، يسهرون الليلَ بطوله حتى يرون خيوط الشّمسِ الأولى، فيجفلون منها إلى أسرّتهم، يسرفون في تقطيعِ الوقتِ إلى جثث ميتة، يسرفون في اضاعتهِ كمناديل متّسخة، يسرفون في الهربِ منهُ كعقابٍ متأخّر،

لا يـــوجدُ عندنا منبّهاتٌ تهتزُّ عند السادسةِ صباحاً يوم الخميس، الـــنّهار عــــندنا يبدأ من بعد الظهر، ويوم اجازتنا ككل يومٍ قبلهُ منـــزوعُ الروحِ، موفورُ الملل، لا روائح للقهوةِ ولا تحايا للصباحِ، ولا ابتسامات توزعُ في كل اتجاهٍ، ولا صحفٌ تلقى عند بوابات البـــيوتِ بشوارعِ جدة هذا الصباح، وكلّ صباحٍ. من يخرجُ من بيـــتهِ في هذا الوقتِ سيكون مثيراً للريبة، سيظنه الجميع امّا مخمورٌ أو ســـارق، حتى ارتداءهُ لحذاءٍ رياضيّ فاخر لن يشفع له أبداً، لا مـــشي في السادسةِ صباحاً، لا صبح في السادسةِ صباحاً، لا نحبّ الـــنهار هــــنا يا عبدالله، النهارُ محرّضٌ على الأسئلة، ونحنُ نمتلكُ اجاباتـــنا من كتب الأولين، من مذيعةِ نشرةِ الأخبارِ الرسمية، من الـــصفحةِ الأولى للصحيفةِ الرسمية، اجاباتنا مقنعةٌ، مطمئنةٌ، منوّمةٌ لكلّ من أراد الاستيقاظ صُدفة!.

الـــنّهارُ محرّضُ على الأمل، ونحنُ ممتلئون بالألمِ عن آخرنا، الـــنّهارُ محرّضٌ على الكلام ونحنُ ادمنّا الصّمتُ ونسينا مفرداتنا الجمـــيلة، النّهارُ محرّضٌ على الغناءِ ونحنُ حرّمناهُ وقطعنا أوتاره، الـــنّهارُ محرّضٌ على النّشاطِ ونحنُ ترهّلنا بما فيهِ الكفاية، نحنُ من كـــلّ أقـــوامِ الأرضِ مازال مجلسُ الشورى عندنا يُناقشُ حصة الرياضةِ في مدارسِ البنات هل يوافقون عليها أم لا؟ فكيف تريدنا يــــا "عبدالله" أن نصحو مبكراً هكذا، هل لنلتقي بخيباتنا أسرع، لنؤجلها إلى الظهرِ، إلى ما بعد العصرِ مثلاً، فهي لن تنتظرنا لأنها واثقةٌ أنها خُلقت أصلاً من أجلنا فعلامَ تستعجل!.

مساءُ الخميسِ هو مساءُ خلود الذي تؤرقني فيهِ للمرةِ الثالثة بمجيئها إليّ، بعد العاشرةِ تراودُ فيها معاذا عن نفسه، قلتُ لها مرةً "إن شكل رجليهِ الضامرتين لا يثيرُ امرأة على مضاجعته، بل على الحنان عليه، عليكِ أن تبتعدي عن معاذ لقد تعبتُ في بناءِ جمالِ روحه ولا أريد لعاهرةٍ أن تلوثها"

قالـــت لي: أريد معهُ أن أجرّب شيئاً جديداً، رجلاً أنا التي أحرّكه ليصل إلى نشوته، رجلاً أنا التي أتحكّمُ في لذّته، لن أنظر إلى رجلـــيه، سأركّزُ عينيّ في وجهه الجميل، أريد معه أن اثبت لنفـــسي ســـهولة الرجال بكلّ حالاتهم، وأعمالهم، ومراكزهم، وجبروتهم، حتى اعاقاتهم، إنهم دُمى، عندي أنا هم مجرّدُ دُمى، لا يقاومـــون طويلاً، يصدّقون كلُّ ما أقولهُ لهم، يغدقون عليّ من أموالهم القليلة، يمسحون دموعي التي تعبتُ في استحلابها، الرجالُ في كـــل الدنيا أسهلُ على المرأة الذكيةِ والجميلةِ من رسمِ عينيها بالكحـــلِ أمام المرآة، لا يوجدُ رجلٌ خارج نطاقِ الرّغبات، لا يـــوجدُ رجـــلٌ بتول، بينما هناك مئاتٌ النساءِ المتبتلات، مئات النساءِ العذراوات حتى الأربعين، اذا كانت الرغبة لم تنتصر على المـــرأة وسحقت الرّجل، فلماذا حتى الآن مازالت هيَ الناقصة، هي الماجنة، هي الخاطئة، هيَ المُدانة؟!.

في ليلةِ الخميسِ الماضية، بعد أن طردتها وهي تُقبّلهُ في فمه، قال لي "أنا أريدها، ليس من حقّكِ أن تحددي لي حياتي، لقد علّمتني أن جسدي ملكي أنا وحدي، فكيف تناقضين نفسكِ الان"

قلتُ له: قلت أن جسدك ملكك، لكنها ملكيةٌ محدودة في نهايةِ الأمر، ليس مسموحا لك أن تهينه، أو تقتله، ليس مسموحاً لـــك أن تنقل اليهِ الأمراض ثمّ تراقبهُ وهو يموت بسببك، أعرفُ خلـــود جـــيّداً، إنها تكبرُك بأكثر من عشرين سنة، تعاشرُ كل اســـبوع رجـــلاً مختلفاً، تحملُ أمراضهم في جسدها، أنا أخافُ عليك منها، ستؤذيك حتماً.

قـــال: أنـــا ســـأمارسُ معها لذتي فقط، ما أحتاجهُ منها، ســـأرتدي واقياً، أنا اشتهيها كلّ ليلة، انها امرأة مثيرة، وأعرف كيف أحمي جسدي بعيداً عن نصائحك الغبية!.

في هـــذهِ اللـــيلة، أخبرتها أن معاذ، هو نفسهُ سيختارُ، وان كـــان يريدُك فلتأخذيه معكِ إلى بيتك وتدخليهِ إلى غرفتك أمام ابنتيكِ، أو أن تستأجري لكما غرفة في احد الفنادق، فقذارتكِ لن ينـــزل منها نقطةٌ في بيتي.

كان يحدّقُ إليّ بذعرٍ مُهيب، وأطال السّكوت، بعدها طلب مـــن خلود الانصراف وأن لا يراها بعد اليوم، ثمّ حرّك كرسيهُ بعـــنفٍ وحبس نفسهُ في غرفته، لم يسهر معي مع أنني كنتُ قد حـــضّرتُ لـــه فيلما لحياةِ ومشوارِ مايكل جاكسون الذي يحبه كثيراً.

اقتـــربتُ من بابِ غرفتهِ ومازحتهُ بخبث مذكّرةً إياهُ بعبارةٍ كـــنا قـــرأناها معاً في ترجمةِ فيلمٍ لطفلٍ مراهقٍ يُتيّمُ بأرملةٍ فائقة الجمال في حيّهم، وينتظرها كلّ يوم مع رفاقهِ أمام بيتها، ويتأملها

بـــرغبةٍ -مثلهُ-مبتدئه، وفي احدى لقطاتِ الفيلم يُمارسُ العادة السّرية في سريرٍ يصدرُ صريراً قوياً في بيتٍ صغير وأبوينِ منصتين، فيقولُ لهُ أبوه "أيها الأحمق. ستفقدُ نظركَ يوماً ما!"

قلتُ لمعاذ تلك العبارةِ وأنا أضحك، فبالغ في تحريكِ سريرهِ وهـــو يـــضحكُ أيضاً، واتجهتُ لغرفتي وأنا مطمئنةٌ إلى أنه ليس غاضباً مني.

** ** **

الإيمـــانُ هو أنْ تبذُل حتى روحك، دونَ أن تتيقّن الحصول على مُقابل، فهل يُعدّ الحبّ ايماناً هُو الآخر؟!.

حبّي لك هو ما يجعلني تعيسةً وسعيدةً في ذاتِ الوقت، أن تتوفّر لي فُرصُ الحبّ، ويغمرني أحدهم بكلماتهِ، ويتمنى آخرٌ أن أردّ علـــى رســـائلِه، ثمّ أتشّوقُ منك إلى سماعِ كلمةٍ ولو كانت "تبّاً" فهذا لوحدهِ يجعلنُي بائسةٌ ومثيرةٌ للشفقةِ معاً.

فقد صنعَ الإنسانُ الخمر، والمهدئات، والتّخدير، والسّجائرُ، بـــل وحتّـــى الأسوأ كالمخدّرات، لإسكات وتهدئة آلامِ روحهِ المُـــستعرة، فلَـــم يُـــراوح تأثيرهـــا يوماً حدود جسَدهِ المُتعب، واحتبسَتِ الآم روحهِ في مكانٍ قصيٍّ بينَهُ وبينَه، فيا لها من روحٍ لا يشفيها حتّى الموت!.

فأنـــت أوّلُ من يحضُر قبل ثمالتي ووآخرُ من يسخرُ من ثمالتي، وأوّلُ جرحٍ يوقظُني في الصّباح، وأينما ولّيتُ قلبـــي،

قال لي هذا ليسَ هو الذي أحبهُ، وعاد إليّ يُحبُّكَ خاسئاً وهو حسير.

"بــــدر" صديقٌ أعرفُه من عمليّ الصّحفي الحُر في احدى المجــلاتِ الثقافـــية، عرفتهُ قبل رحيلِك كزميل، وعرفتهُ بعد رحــيلك كـــصديق، كان بدر رجلا نادر الوجود في كرمهِ وتسامحه وحبّه، لو لم أكن ممتلئةً بك حدّ الجنون لأحببته، بدر يـــأتي مـــن الجنوب، حيثُ الجبالُ والحقولُ ثيمةُ التّعالي على الصّغائر، وهمّة النفوسِ إلى الريادة، قال لي حين سألته أول مرّة من أين أنت؟

قـــال: أنا من الجنوب حيثُ الجبالُ ترفعُني لأقّبل الشمس، وأحلم أعلى!.

لـــيس مـــن السّهلِ اقناعُ جنوبـــي بالتخلي عن مبادئه، لا يحبّون كلّ ما يأتي سهلاً، لا تغريهم الطرقُ السريعة المُمهّدة، ولا المرأة الخفيفة، ولا يرضون بالمراكزِ الأخيرة، كان بدر يحمل أجمل مـــا في الجـــنوب، ملامحهم البالغةِ في الدّقة، وأجسادهم الموشّاةُ بالشمسِ والرّيحان.

مشكلتهُ أنه يتفاءلُ أكثر من اللازم، يغدقُ على الكونِ من أمنـــياته، يبتـــسمُ أكثر مما يجب، يثقُ في أحلامه أكثر من واقعه، لذلك يبكي كثيراً، ويألم وينكسر، وتغدر بهِ النساء، ويعودُ كما كان بدر الذي يحبّ كل شيءٍ حوله، يجد لكل شرّ عذرا، ولكل غدرٍ تبرير.

الصديقُ الوحيد الذي أجلسُ معه بالمقهى، أو حتى بسيارته ساعاتٍ طويلة دون أن أنتبه أنني مع رجل، دون أن تحضرني حكايةُ الشيطان والغرائز، الوحيدُ الذي استطيعُ اخبارهُ كم هي الحياةُ صعبةٌ بلا حب، وكم هي أصعبُ بالرذيلة.

يزعجني في بدرٍ بياضُه المبالغِ فيه، من المقلقِ أن تكون مع كائنٍ يفوقُ تصوراتك عن البياض، ويفوق قدراتك على مُجاراته، تصبح صداقته كنوعٍ من التطهر من جانبك المُظلم، ويصبح البعد عنهُ نوعٌ من التهربِ من وعثاءِ الضمير، لا يمكن أن تجد انسانا يحملُ كل هذا الخيرِ والحب والسلامِ كبدر، سألته مرة، ألا تكرهُ أحداً؟ زوجةُ أبيك التي عذّبتك واخرجتك من بيت والدك لتتشرد زمنا طويلا؟ ألا تكرهها؟

قال: لا لأنها فعلت ذلك بدافع حبها ورغبتها في امتلاك أبي، مبدأ خطئها كان حسناً لذلك لا ألومها أنا نفسي سأحب امتلاك من أحبها، لكنها للأسف متيّمةٌ حتى النّخاع برجلٍ غيري، لذلك سأكتفي بحبها من بعيدٍ كمهاجر.

عرفتُ أنه يقصدني، لكنني أحاول دائماً صرف حديثه لأيّ شيء آخرٍ سواه، فكائنٌ مثلي لا يقوى على بياضِ وسذاجةِ بدر في نفسِ الوقت.

اليوم كان موعدي معهُ ومجموعةٌ من زميلاتِ وزملاء العملِ في المجلة، في مقهى الأندلسيةِ الذي تغلبُ عليهِ الملامح الثقافية، وأجواء الكتب واللوحات الفنية، كان ضيفُنا كاتبٌ ليبرالي كبير

من الرياض، له كثير من الصدامات والخلافاتِ مع الإسلاميين، وله الكثير من الزوابعِ والصراعات، ومقالاته تثير الكثير من اللغطِ وردات الفعل، وجرأته جعلته وجها مألوفا في كل برامج الحوارِ بالفضائيات، في نهايةِ جلستنا انصرف الجميع وبقيتُ وبدر وهو - لأنني كنتُ أتيت مع بدرٍ في سيارته - بعد أن أومأ لي بتحرشٍ لفظي وغمز لي بعينه سألت الكاتب الكبير عن زوجته ماذا تعمل، ما دورها في شهرته، ما رأيها في أفكاره، قال لي إنها ربةُ بيت، ولا تقرأ مقالاته بانتظام.

سألته عن اسمها، ولماذا لم تحضر معه، قال لي إنها لا تريد واسمها يخصه لوحده، وضايقهُ سؤالي للدرجةِ التي اعتذر فيها عن تأخره ورحل.

بعد رحيله سألت بدر، ان كان في سؤالي عن زوجته ما يُضايقه، فقال لي أنا أعرفه جيدا وأزوره في بيته، هو نجديّ أصلي، لا يطبق شيئاً من أفكاره عن المرأة، وعن تحريرها واحترامها والنظر إليها كانسانٍ والمطالبة بحقوقها، حين يتعلقُ الأمر بنسائه، بل قد تستغربين اذا عرفتي أن لديهِ زوجتين واحدةٌ رسمية، وأخرى في السّر"

جعلني هذا أفكّرُ كثيراً، لماذا يناقضون انفسهم، ويطالبون بأشياء لم يُحققوها هم أولاً.

الفكرُ في بؤسنا الفكري هُنا، مشغولٌ بالمرأة، الدينيون يصدرون لها الفتاوى اليومية التي تضبط وجودها المثيرِ للفتنة،

والليبراليون يحصرون مطالباتهم ومنافحاتهم على حقوقها، ومساواتها، ولذلك فنحنُ نملك فكر المرأة، لا فكراً آخر.

حينَ عجزنا عن مقاربةِ قضايانا الكُبرى، عن طرحِ أسئلتنا المُحرمة، عن رفعِ ظلمنا المستمر، عن تفسيرِ فقرنا المستطيرِ بلا هوادة، عن ضياعِ حرّياتنا المستحقة، عوضنا عجزنا بالمرأة، واوجدنا صراعاتٍ تكفينا لسنواتٍ قادمة، وملأنا الصّحف، والقنوات، والانترنت، تنظيراً وقضايا، ومساجلات.

أتذكّرُ المرّة التي تحدثت فيها عن الحربِ على بغداد، كلّ انطباعٍ منك يترُكُ لديّ شعورٌ أنّك حلمٌ أكثر من كونِك رجُل، وأنّك طموحٌ أكثر من كونِك حبيب، آلمتك الحربُ جداً، وكنتُ أنا أتأملك كما يطيبُ لحالمٍ في حالةِ لا وعي، هكذا نحنُ يا "حبيبي" التغييرُ يأتينا من الخارج، والألمُ الداخليّ كفيلٌ بذرائعِ المستعمرِ كافّةً، صديقتي العراقيةِ اسمها نجلاء، تواصلتُ معها مؤخراً بعد أن أرسلت لي نصّاً يفوحُ برائحةِ البارودِ والروحُ التي تغلي احتراقاً وحسرةً، قلتُ لها "ويحُكِ نجلاء، لقد أوسعتِ بغداد لطماً وما بكى سواكِ"

قالت "لم أعد أطيقه، هذا الوطنُ المنافقُ المتلّون، انهُ لا يلوي رأسهُ المريضُ إليّ أنا هُنا بروحي سأنقذه، أنا هُنا الوحيدةُ التي تُحبّه بلا مُقابل.. أهلكتنا خلافاتنا والمستعمر، وامتلأت أرواحنا بالحقدِ، و لم نعد بعد أن وعدونا بالعودة، من قال بأنهم أتو لبلادنا لإعمارها، سحقاً لهم لقد هدموا آمالنا عن آخرها، قتلوا أحلامنا

وعلّقـــوا نُـــصبها في الشّوارع، الخرابُ هو الوحيدُ الذي زارنا معهم، لا خير في تغييرٍ يأتي من الخارِج أبداً"

قلـــتُ لها "نجلاء، أعدك يوماً ما، ستلدُ العراقُ جيلاً يسقي نخيلها بالسلامِ والحبّ والبناء، ابنتك وولدُك، سيكونانِ معهم"

في بداياتِ الغزو على العراق، عرفتُك، كنتُ على قدرٍ مع الجراحِ بك، سألتُك يومها لماذا نكتبُ، طالما أن القلم لا يوازي قـــوةَ أضـــعف أنواع الأسلحة الجديدة، القتلُ أسرعُ من صوتِ القلـــمِ الخافت، وكنتُ أعلم يقينا أن حروفك أنت وحدك قد أنقذت روحي من الموت، أعادتني للحياة، لكنني سألتك امعاناً في تمتعـــي بكـــل كلمـــة منك، كل تفسير، كل اجابةِ، كل لحظة صمت، وحتى كلّ تنهيده، قلت لي أننا نكتبُ لأنه لا بد يوما ما أن تـــتحول كلماتنا وكتاباتنا إلى حقيقة، اننا نكتب لأننا نريدُ لألمنا أن يتنفس، ولأحلامنا أن تتجسد، نكتب لأن السطور التي يقرأها شخصٌ في آخر الأرض سيُشاركنا صناعة رأي عامٍ يؤمن بما نقوله، بما نتوقُ إليه، اننا بالكتابة نمهّدُ للتغيير، نرسم لهُ خارطة الطـــريق، نخفف عنهُ أسقامه، ونخلّد بأقلامنا انتصاراته، لم يكن الكاتـــب يـــوماً سوى محرّضٍ على الحقيقة، محرّض على الحرية، محرّضٍ على العدالة، لا صانعٌ لها، المهمةُ الأكبر لا يستطيعها قلمٌ أعـــزل، لكـــنهُ يقومُ بالجزءِ الأصعب، حربُ الأفكارِ المتطرفةِ، والمـــتخلّفةِ، والهدّامـــةِ في العقـــول، بدونِ الكتابةِ كنّا سنختنق بأحلامنا، ووجعنا، وحبنا وأسئلتنا الكبرى.

وأنـــا أكـــتبُ لـــك رسائلي لأنني أريدُ أن أقترب بك من الحقـــيقة، أتطهّرُ بحروفي من ارتالِ الزيفِ الذي يُغطي وجودنا، أكـــتب لك لأنني لا أدري، وبالكتابةِ لك سأحاولُ أن أدري، سأحاولُ من خلالك وبها أن أصل للمعرفة، للخلاص، للانعتاقِ مـــن قـــيدِ الشعورِ بالضّآلةِ والعجزِ والبؤسِ والاغتراب والظلم، الكـــتابةُ حالـــةُ هـــروب، هربتُ بها من أسئلتي التي لم تشبعني اجاباتها، فحاصرتني الكتابةُ نفسها فيك.

وأتساءلُ الليلة كطفلٍ شاهد مبتوراً للمرة الأولى في حياته، وســـأل أبوه لماذا هو هكذا، فلم يُجبهُ أحد، سأتساءلُ الليلة هل حصل الإنسان على العدالةِ الكاملة على مرّ تاريخهِ الطويل؟!، هل أنصف كما يجب، أم انّه لم يذق طعمها يوماً، بنفسِ القدرِ نخرج للحياةِ غير متساوين، غير متكافئين، غير متشابهين، البداية نفسها تفـــرّق بيننا، ان عدم وجودِ عدالة ابتداءً تجعلُ المطالباتِ بعدالةٍ مُطلقة أثنائيةٍ، أو هدفاً أسمى هي مُجرّدٌ عبثٍ جميل، وجمالٌ عبثيّ!.

حـــين ســـألتك في مكالمةٍ ثانية - بعيد معرفتي بك - عن حقوق الإنسان وعنِ العدالة، هذهِ الشعارات التي تبدو كأحلامٍ لنا، قلت لي إنّ الطريقُ إلى الحقوقِ محفوفٌ بالظلم، تماماً كما هو الطـــريقُ إلى الحريةِ مرهونٌ بالدم، علينا أن نتذوق مرارة الدواء لنـــنعم بالعافيةِ، لكنني الليلة أسألُك، وماذا عن عدالةِ المظلومين بوجـــودهم، بهـــيأتهم الأولى، ومن هو المسؤول عن ظلمهم من يلومون تحديداً؟!

وهــل أنــا محمومةٌ بالوجوديةِ الليلة، أم محمومةٌ بالرغبةِ في استــتنطاقِك، في كلمـــة مـــنك، في وجودك تردمُ هذا الفراغ بجمجمـــتي، وهـــذا البردُ في صدري، وهذا الاغتراب في وطني، وهذا الهزيعُ في روحي!.

سأحكي لك حكاية صديقتي السّمراء بالجامعة حيثُ أعمل، اسمها عواطف طالبة في المستوى الثاني، أصبحت صديقتي بعد أن لفّقـــت لها عذراً لتخرج من الجامعةِ مع صديقاتها لتناول الافطار في مقهى تيانا، هي حسناءٌ اذا ما قارنتها بناعومي كامبل العارضة العالمـــية السمراء، تملك ذقنا مصقولاً، وعينين واسعتين، وشفتينِ منتفخةً بإثارة، وجسداً نحيل الخصرِ، مكتنـــز الأرداف، وتضعُ بأنفها خزاماً ذهبياً يجعلها فاتنةً أكثر.

مـــا يـــثير استغرابـــي في عواطف، أنها كانت تستحي من سمرتها باستمرار، تشتري بكل ما يصل ليديها من نقود مساحيق لتفتـــيح لون البشرة، تسرف في وضع المكياج، تحاول أن تبدو أفـــتح مـــن بشرتها الحقيقية، مع كونها جميلة، حين التقيتها مرة ببوفـــيه الجامعـــة وأفطرنا معاً، قلت لها لم لا تستمتعي بلونك، السمراوات في أمريكا لا يشترين كريم أساس أبيض أبداً، يبدين فخورات بلونهن، لديهن عشاقٌ بيض أيضاً.

قالـــت لي: أنا هنا لست في أمريكا "يا ريم" الشاب الوحيد الـــذي تعلقـــتُ به حين التقيتهُ في المرةِ الأولى قال لي بكلّ تقزز "افا طلعتي عبده!"

هكذا بكلّ سُخف اعتبر سوادي عيباً لا يمكنهُ تقبّله، البناتُ اللـــواتي اختلفُ معهنّ، أو أتصرف معهن بندية هنا في الجامعة، يـــسخرن مني بعباراتٍ تمتلئ تعصباً وسخرية، فأًنا إما طقاقة، أو كـــولا، أو عبدنـــــز، أو خالة، لا شيء سوى لوني يا ريم، هو تعـــريفتي للآخـــرين، هو بطاقةُ عبوري لهم، المشكلةُ أننا جميعنا درسنا أن الإسلام كان أول دينٍ ساوى بين الناسِ في أجناسهم وألوانهم، هذا زيف حتى بلال بن رباح استشفع له الرسول ليقبله أنـــاس ليزوجوه، أقسمُ أنني لن أتزوج سوى أسودٍ مثلي في هذا المجـــتمع اللعين، ولن أصادق إلا سوداواتٍ مثلي، ولن يُسمح لي بتجاوزِ حدودي لأنني في النهايةِ محضُ سوداء.

فأنـــا هـــنا في هذا المجتمع لي مصيبتين، الأولى أنني امرأة، والثانيةُ أنني سوداء، اصدقيني يا ريم هل سمعتِ في هذا البلدِ بوزيرٍ أســـود، بكبيرِ أسود؟، أمريكا توليّ أمرها لأسود، ونحنُ لا زلنا نـــسميهِ عـــبداً، هكذا بكلّ بساطة، أي أقل من الحرّ بدرجاتٍ، ونحـــن الوحـــيدون الذين كذبنا على العالمِ وقلنا أن ديننا أزال العبودية، وساوى بين الناس، أعرف أنهم لا يقصدون كونه عبدا أي خادم لكن التسمية لوحدها اهانة، الشعارات شيء، ولعنات هذا المجتمعِ شيءٌ آخر، لم يكن العبيدُ يوما سوداً فقط، لقد كانوا من كلّ الأجناس، والآن عبيدُ أمريكا وزراءٌ، ولاعبون، وأغنياء، وســـفراء، والـــسود عندنا مازال عليهم أن يستخدموا كريمات التفتيحِ لإقناع العالمِ باستحقاقهم للمراكزِ الأولى.

ســـألتُها: هل لهذا السّببِ تتعلّقين بالبيضِ وصديقك الملوّن الـــذي نعـــتكِ بالـــسوداء!، هم لن يمنحوكِ يوماً لونهم، وإنما ســـيغدقون علـــيكِ - فقط - من شفقتهم الممزوجةِ بالتعالي، والشّفقةُ جيفَةُ المشاعرِ، فإيّاكِ وجمع الجِيَف في قلبك، فإننا مهما حاولـــنا اخفاءها ستفوحُ رائحتُها الكريهةُ يوماً ما، توقّفي عنِ الاعـــتقاد بـــأنّهم أفـــضل، وحين تفعلين ذلك، عندها ستكون بدايتُك، وهذا ما فعلَهُ ما لكوم اكس حينَ حرّر روحهُ من لونِ جلده.

عواطـــف حتى الآن مصرّةٌ على طبعِ صورةِ مادونا على فانيلـــتها بالجامعـــة، ولا تريد أن تضع بدلا منها جنيفر لوبيز مثلاً.

تـــأتي عواطف من وقتٍ لآخر لزيارتي في مكتبـــي وتناول طعـــامِ الإفطار، نعتتني خلود مرّة بـــ "لزبين العَبْدَات"، وأردفت "عجزتِ عنِ الخيانةِ مع رجلٍ فارتأيتِ الخيانة مع امرأةٍ هيَ كاملةٌ تشبهُ شكلَ ولون عضوه! يا لكِ من مثيرةٍ للشفقة!".

لم أهتم فبالأخير لن أغضب من امرأةٍ تُحاولُ تخفيف حدة شـــعورها المريرِ بالذنبِ باتهامِ الآخرين برغبتهم فيه مثلها، امرأة رأسُ مالها في الحياةِ ما بين رجليَها وكثيرٌ من الرجالِ الأغبياء!.

اللـــيلة فاجأني معاذٌ بطلب، بدا ملحّاً بيقين، لم أرد تخييبَ أملـــه، لقد طلب مني تمكينهُ من أن يرقُص واقفاً، أن يرقص كما يـــرقصُ الجازانـــيون في مقطـــعِ فـــيديو أبهرتهُ تفاصيلُ الرقصةِ

وحيويتُها، وتعابيرُها المشبعةِ بالبهجةِ والفرح، والنشاطِ المصاحبِ للخفّة، قال لي:

ريم، احملـــيني، ساعديني على الوقوفِ ولو جزءاً من الثانية، أريدُ أن أرقُص كهُم!

تأملـــتهُ جـــيّداً، كان موقناً أنه قادرٌ على أن يرقُص، تلك الرقـــصةُ التي تعتمد بالدرجةِ الأولى على القدمين، وكان متأهباً بكلّ جوارحه أن يقفز.

شـــددتهُ بقـــوتي كلها إلى جسمي، جعلتهُ يبدو واقفاً بلا كرســـي ولا عـــصا ولا جدار يُسندُنا معاً، لم يكد يتحرّك حتى خـــارت قـــواي، أردت أن أخبرهُ كم هو ثقيل مع كونهِ نحيلاً، لكنني سرعان ما أفلتهُ، وسقطتُ فوقهُ بقوة، كنتُ أتألم، وكان يتألّمُ أيضاً، وقبل أن أعتذر منه، اعتذر وقال:

أنـــا آســـف، ما كان ينبغي أن أفكّر في ذلك حتى، كيفَ اقـــنعتُ نفـــسي بالقـــدرةِ على كلّ تلك الحركة يبدو أنّني للتو أكتـــشفُ عجزي من جديد، إنني ميّتٌ، ميتٌ من الأسفل تماماً، أساسي ميت، هل تفهمين؟!.

استدرتُ وجعلتُ عينيّ في عينيهِ الدامعتين، وقلتُ له:

لا بـــأس يـــا مُعاذ، يُمكننا دائماً تدبّرُ الحياة، يمكننا دائماً الاحتـــيالُ لـــرغباتنا، سنخترعُ معاً رقصةً للجزءِ العلويّ فقط، ســـنرقصُ بالجـــزءِ الحـــيّ، لا يمكن تركهُ يموتُ أيضاً، سنرقُصُ جالسيَن، سنرقُصُ مختبئيَن، ما رأيُك؟.

تنهّد بعمقٍ وقال: حسناً، عليكِ اختراعُ الرّقصةِ، وسننفذها معاً، ما رأيكِ بالتّانغو جلوساً؟

قلتُ بزهو: يا لك من لئيم، تقول اخترعي رقصة، ثم تقترحُ رقـــصتك الـــتي تـــريدها، أليست هذهِ الطريقةُ تشبه الشفافية، والديمقراطية العربية!

ضحكنا معاً، ودموعنا مازالت نديةً على خديّنا، وعزمتُ أن آخذهُ معي من الغدِ لبيتِ سعاد حيثُ نتعلّمُ وايّاها الرّقص المصري على يدِ ابنةِ عمتها شهد، بعد أن فشلنا في ايجادِ مدربةٍ أكثر احترافاً من شهد التي تعلمنا بكثيرٍ من الأخطاءِ، والتعالي، والضّجر.

الأجسادُ يا عبدالله، نسينا حظها من المرح والجمال، نسينا حظها من العافية، وتذكرنا جيّداً حظّها من المتعةِ والجنس، ربّما لأنّـــه يتمّ مثلنا في الخفاء، يصبحُ أكثر إثارة في الظلامِ مثلنا، لا مـــدارس للـــرقصِ في جدة، لا راقصات باليه سعوديات، ولا محترفات جمبازٍ في النادي الرياضي النسائي الوحيد، وفي الرياض لا نادٍ رياضي نسائيٍ أصلاً، أجسادنا ممتلئةٌ بنصيبِ دولِ جنوبِ افـــريقيا من اللحم، لا مواصفات عاليةٍ ودقيقة لاختيارِ الممثلين والممثلات في التلفاز فقط – لأنه ليس لدينا سينما – فلدينا حتى الـــذين يجب أن يكون فنهم وموسيقاهم وجمالياتهم- بل وحتى زهـــدهم وتقـــشفهم وتديـــنهم – يجب أن ينعكس ذلك على أجـــسادهم لا تجـــد شيئاً من ذلك، أطباؤنا أكثر الناسِ تطرفاً وبدانة، فكيف بغيرهم.

لا مهـــرجاناتٌ للرشـــاقة، ولا مـــسابقاتٌ للجمالِ، ولا مسابقاتٌ للرقص، ولا عروض للأزياء يوجد هنا فقط مهرجانٌ للابلِ، والتفحيطِ، والكثير، الكثير من التّسوق، والكثير الكثير من النهمِ الاستهلاكي.

اللـــيلةُ يـــأكلني الكلامُ من شدةِ الصّمت، الكلام الذي لا تسمعهُ ليس بياناً، والألم الذي لا تواسيهِ يُصبِحُ مأساةً، والدموع التي لا تمسحها تصبحُ خالية من الملح!.

في الصّباح حين تلقيتُ منك رسالةً في بريدي الإلكتروني، تخبرني بتغيير الصحيفةِ التي تكتُب لها، فقد أصبحت تكتب للحياة اللندنية، تتبعتُ الرابط بشغفِ القراءة لك، والذي لا يخبو أبداً، ولا يقلـــل منه حتى كون الموضوع ليس من اهتماماتي، فكل ما تقولُ رأيك فيه، يصبح جديراً بالتفكير، جديراً بالذاكرة، كنت تـــضعُ صـــورة جديدة لك أعلى مقالتك، الجديد أنك مختلف، مخـــتلفٌ جداً، لقد صبغتَ شعركَ بالرّمادي، وبدا وجهُك حليقاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وبرق في عينيك لونٌ لا يشبهُ سوادها الأول، ومـــلأت مقالتك بالمصطلحاتِ والكلمات الإنجليزية، لا أدري لماذا في هذا المقالِ بالذاتِ شيءٌ ما انقبضَ في قلبـــي، كأمّ تتعرّفُ بالكاد على ملامحِ ولدها العائد من هجرةٍ طويلة، تتحسسهُ بهلـــع، تبحثُ في بقايا ملامحهِ عن بقاياه، تتفرّسُ عيونه تنادي فيهما ذاك الذي ذهب، ذاك الذي للتو ارتوى من ماءِ البئرِ، ومازالت يداهُ متورمـــتانِ من أثر مسحاةِ الحقل، ذاك الذي كان ثوبه مغبرٌ بالتّمرِ

وتـــسلّقِ الـــنّخل، أنـــا تلك الأمّ الآن، أنا بكلّ ذلك الهلعِ أتفرّسُ ملامحك الجديدة، ملامحك اللندنية، وأضع يدي على قلبـــي، على ذلـــك البدوي الأول الذي عرفته قبل ثمانِ سنوات، على شماغه، وسوادِ عينيهِ، واسمرارهِ، وكلمةِ "شسمه"، عليهِ هنا كما كان، لا كما أصبح، وأتمنى على لندن أن لا تأخذهُ مني أكثر.

فأشياؤك الأولى ما زالت عالقةً بـــي، كذاكرةٍ مقدّسة على النسيان، أحبها كما كانت، وأحبك كما أنت الآن، وفي داخلي لكلّ حالاتك ثمّ مكان.

أشعر الآن أني ديكتاتوريّةٌ بحبّك أكثر من أيّ وقتٍ مضى، حين أملكُك، سأمنعُ عنك الهواء، ليس لأنني أريدُ موتك، ولكن غـــيرةً علـــيك ألاّ يُـــشاركني فيكَ الهواء، ألاّ يدخل إليك بينما قـــضيتُ عمري أحاولُ أن أدخُل، جنونيٌّ هذا، أنانيٌّ وفج هذا، لكنني أتمنى ذلك فعلاً، هذه الفكرة تسيطر على قلبٍ جازعٍ الآن، وكيفما اتفق كتبتُها لك.

** ** **

كانت لديّ جولةٌ صحفيةٌ اليوم، قبل أن أتناول طعام العشاء ببيت سعاد أنا وراقص التانغو الجديد معاذ.

في طريقـــي إلى تصوير أحد الكباري المتضرر من السيل مع زميلتي سُهى، استوقفني كرتون جهاز تكييف من شركة ال جي، يتحـــركُ يمينا ويساراً، وتلوح منه يد، ثم تختفي، طلبنا من السائق

أن يـــتوقّف قـــبل أن نلقي نظرة على الكائن الحي الذي يحرك الكـــرتون، كـــان مسنّاً يصلي صلاة الظهر، وكان يكبر حين اعـــتقدنا أنه يلوّحُ بيديه، انتظرنا حتى أنهى صلاته ثم القينا عليه السلام، سألته سُهى:

ماذا تفعل هنا، يا عمو؟

نظـــر إليـــنا بانكسارٍ، وقال: هذا بيتي، الا يصلي الناسُ في بيوتهم عندكن؟!.

بعـــد أن شـــاهد الكـــاميرا في يد سهى، قال أنا لا أحب التلفزيون، لا أريد من أحد أن يصورني.

أبعـــدت سُهى الكاميرا فوراً عن وجههِ، وضعتها جانباً، ثمّ جلسنا لنتحدث معهُ، فوجهه صبوح وعيناه ممتلئةٌ بالبوح، بشكلٍ مغرٍ، قالت: عمو شو اسمك؟

ردّ بنظرة امتنان: اسمي صالح، عمري أكثر من الثمانين، لم أعـــد أتذكرُ جيداً، عملتُ مع ابـــي بالعين العزيزية قبل أن تأتي التحلية، لي في هذا البلد أكثر من ستين سنة، لم يعد لي أحد في الحياةِ إلا الله سبحانه، زوجتي ماتت قبل خمس سنوات، صرفت كل ما أملكه من أموال على علاجها، كانت مصابةً بالسّكري، بتروا رجلها اليمنى، ثم أجروا لها عملية في القلب، وبعدها بأشهرٍ بتـــروا اليسرى، وبعدها ماتت رحمها الله، حتى بيتي بعته لأسدد ديون المستشفيات الخاصة، والان بيتي هذا الكرتون، وذكريات الذين رحلوا.

قالت سهى: عمو لِمَ لا تعُد إلى وطنك، ربما بقي لك أقاربُ كثر يستطيعون تعويضك عما فقدته والقيام على خدمتك ما تبقى لك من عمر.

التفتَ لسهى وقال: هذا وطني وأنا في الحالتين ضائع، لكنّ ضياعاً أعرفه خيرٌ من ضياعٍ لا أعرفه، الذين هم مثلي سكنهم الوطن رغماً عنهم حينَ سكنوهُ رغماً عنه، فباتوا بين رغمين أحلاهما مر.

انصرفنا، وصورتهُ عالقةٌ بذهني، كلُّ هذا الوطن، وبيته من كرتون، وكلّ هذه السنين ومازال مقيماً، لكنّ ما يهونُ عليهِ وحدته، شعورهُ أن قبر زوجته في مكان ما قريب، الدفء الذي يأتينا من الأموات، أحياناً يكونُ أجدى من بردِ الأحياءِ وتجاهلهم وفنعيشُ في الوسط، بين قبورهم المطمورة، وقبورنا التي ما زال على أحدهم أن يغلقها علينا يوما ما!.

في الطريقِ إلى مقرّ المجلة تصفحتُ جهازي المحمول، الذئبُ الوحيد أرسلَ لي على بريدي يقولُ: مرحى تستضيفون فاسداً جديداً اليوم، هنيئا لجدة بابن علي يبدو أنكم على قَدَرٍ مع اللصوصِ والفاسدين وصائدي الأرواح!.

كتبتُ لهُ: حين ألتقيهِ صُدفة يوماً بأحدِ شوارعِ جدة، سأصرخُ بهِ كما فعلت تلك المواطنة الأمريكيةُ حين دخل رامسفيلد بعد اقالته إلى أحد المتاحف، قالت: هذا هو القاتل، أمسكوا بالسفاح الذي قتل العراقيين، ولفّق حجة كاذبةً

للحرب، إنه مجرمُ حرب اقتلوهُ، كان موقفاً لا يُحسد عليه حاول تجاهلها بكلّ ما يستطيع لكنّ الكاميرا أمسكته إلى الأبد، وهكذا سأفعل حين أصادف ابن علي.

في المساء حين توجّهنا إلى منزلِ سعاد، كان عليّ أن أمهد لمعاذ أنه سيرى نساء كثيرات، جميلات وعاديات، نصف عاريات ومحتشماتٌ جداً، وأن عليه أن يتعامل مع الوضع وكأنه لا يهتم، وليطلق العنان لخياله هناك على سريرِه لوحده، أقامت سعاد احتفالاً بسيطاً بعيد ميلادِ صديقةِ أخيها مُصعب، كانت وهوَ ينتميان إلى طائفةِ الإيمو، ويعلّقانِ الأقراط والكثير من الأساور بأيديهما، تضعُ كحلاً أسود كثيف على وجهٍ شاحب، وتصبغ خصلتين من شعرها الغارق في السواد باللون الورديّ الصارخ، كانت التورتهُ رائعة الشكل، كُتب عليها بالإنجليزية هذهِ العبارة "ان لم تكن ايمو، فلست انساناً كاملاً!".

قلتُ لهم حسناً: عيد ميلادٍ سعيد، لكنني لست ايمو، وأزعُمُ بعنف أنني انسانٌ كامل، لا يحتاجُ كونك انساني كل هذه المظهرةُ الفجة لإثبات ذلك، أنتم تحبون التميز فقط وهذا المظهر يميزكم، لكننا أفضل العالم في التبرير نخلق تبرير الخطيئة قبل ارتكابها، لذلك تبررون انتماءكم بهدف سامٍ يجعلكم تتقبلون فكرة الإسراف في متابعة آخر صرعات الإيمو في العالم. حتى الحروب تقوم لأجل هدف سامٍ، هدف يراهُ المعتدي ذو قيمة

راقـــية ومحترمة من الجميع، النوايا الطيبة وحدها تستطيع ادخالنا كملوكٍ من أفضل بوابات الجحيم.

نظًـــرت إليّ صــــديقةُ مصعب، وقالت بنبرةٍ هادئة "سيبقى علــيكِ اثـــباتُ ذلك دائماً، الألمُ الذي يتحملهُ البشر، الفقراء، المرضى، المعوقين كهذا الذي معكِ، علينا أن نشاركهم فيه، أن نعذب أنفسنا مقابل أن تساوي الآلهةُ بين اقدارنا!"

ســـألتها: هـــل أنتِ سعودية؟ لأن تأثير استايلالايمو عليكِ جعلني لا أميّزُ ملامحكِ جيداً.

ردت بـــثقة: نعم، ومن المدينة تحديداً، اسمي جودي، طبعا اسمـــي الأصلي حصة لكنه اسم غبـــي حين يتعلق الأمر بالإيمو، سأكون سعيدةً لو لم تنظري إليّ بكلّ هذا التقزز.

غابـــت في وسط الحضور الكبير الذي امتلأ بهِ بيتُ سعاد، من كل الأصدقاء والصديقات، بدا أنها حفلةٌ في باريس وليست في جـــدة الكـــثير من المجون هنا، والأضواء الحمراء، والموسيقى الـــصّاخبة، والـــسيجارُ الكـــوبيّ، والكؤوس المترعة بالرغبات، والنساءِ العاريات، والرجالُ مفتوحي الصدورِ، والعيونِ معاً، هنا وحـــدها القصور تستطيع فعل ما يحلو لها، وحدها تُسيّجُ بالمالِ وســـطوته عـــن عيونِ الرقابة، ووحدها تأخذ نصيبها من الليل، والوطن.

ارتأيتُ أن أجالس معاذ حتى لا يشعر بالملل، لكني وجدته منـــسجماً عن آخرهِ في الحديثِ مع أول امرأةٍ تتركهُ يدخل يديهِ

في ثـــنايا شعرها ويشمه، كانت هذه احدى أمنياته التي يبدو أنها تحققـــت، لكنها بدافع الشفقة كما يبدو لي، وكما يحاولُ أن لا يفهمها جيداً هو.

فالجهـــلُ أحياناً، الجهل الذي نتعمّدهُ حين نشعر أن الحقيقة ستكسرنا، أن الواقع سيهشمنا، يكونُ أفضل، يكونُ أمتع، حتى ونحـــن نعلم أننا نحن الذين صنعناه، نحن الذين زيفناه، نحن الذين أخـــبرنا أنفسنا بغيرِ ما كانت تصدقه، بغير ما كانت تراهُ ورأته، فقط لنبقى على الأمل، فقط لنستطيع حياكة حلم جديد، شمسُ النهارِ ستنقضه.

جـــاءت سعادُ لتوديعي، وطبع قبلةٍ على خد معاذ، لم تنسَ تـــذكيرنا بأذكـــار المساء، وأن تقرأ على رأسِ معاذ المعوذات، وأدعـــية للمرةِ الأولى أسمعها، وذكرتني أن عليّ غداً قراءة سورة الكهف لأنه يوم جمعه.

في سريري تذكرتُ حين كتبت لي يوماً "يومك مليءُ بـــي" وتعجـــبت كم أنانيّ أنت، وطماع بما تملكه أصلاً، ليس يومي هو المليـــءُ بـــك عـــبدالله، إنـــه أنا، أنا بكلّ محاولاتي للهرب، بكلّ صخبـــي، بكل صمتي، بكل رغباتي ونـــزواتي، بكل الرجالِ الذين جئتَ في وجوههم، بكل الطرقِ التي احتللت اتجاهاتها الأربع، بكل عطـــشي إلى ابـــتلاعِ ريقك، بكلّ هذا النّهم الذي ينهشُ جسمي فأجـــدني أمسكُ بنهديّ وأعتصرُني بعنف، ياه كيف رغم كل هذا البعدِ تراودني، وأقول هيت لك، ولا أجد سوى يدي!.

ولـلــصباحاتِ في أرديــة اللــيلِ سرٌّ، تكادُ اشعةُ الشمسِ المختـــرقةِ لأســتارنا أن تكشفهُ، نغطيهِ ليبقى رطباً أكثر، رطباً أطول، كأمنياتنا التي نخفيها في الجانب الأيسر من القلبِ، ونغلقُ عليها، ونقولُ بعدها بخبث: نسينا!.

كـــنتَ تكرهُ الوداع، هذا ما ردّدته دائما حين أسألُك لماذا لم تـــودعني ولـــو ككلبٍ ولو كقطة، لوّح لي على الأقل كما يلوح المـــسافرون للذين لا يريدون رؤيتهم مرّةً أخرى، اكْرَهَ الوداع كما تحـــبّ، لكنه لم يكن لزاماً عليك اجباري على كرهِ الحياة كلها من بعدك، هذا الشوقُ الذي يزلزلُ مفاصلي، يتحّرك كدولاب المنبه في جـــسدي، كصدمةٍ غير قابلة للتصديق، فتصبح كأنها صدمةٌ دائمة، مـــستمرة، متـــتابعة، كهذا النبضِ الذي يردد اسمك، واللعنة، الليلة سأجرّب أن أدعو عليك بعد أن قضيت عمري أصلي من أجلك، الا قاتَلــك الــشّوقُ يا عبدالله كما بهِ قتلتني! الا عساك تهيم على وجهك مجنوناً بـــي، وغارقاً فيّ، وممسوساً بمجرد طيفي.

** ** **

بعـــد صلاة الجمعة كان الكائنُ الطويل "والد معاذ" واقفاً بالـــبابِ طالـــباً منه أن يستعد للجمعة التي سيتجهون بعدها إلى منـــــزلِ خطيبـــته، احتضنت معاذ إلى صدري بعنف، وأخبرته بهمس "أن كل شيء سيكون على ما يُرام"، لكنه قبل أن يسحب كرسيّهُ ليخرج، قال: سأكون مثلك!

استغربت من كلمته، وقلت كيف؟

لكنه واصَل سحبه لكرسيه ومغالبا دمعتهُ، وطالباً مني تمريرُ المبخـــر علـــى شماغهِ، ووجهه، كان رائعاً كعريس، لكن الحزن كسى ملامحهُ كطفلٍ خطفوا منهُ أمه!.

بعد عودتهم من بيت المخطوبةِ، الغاصبةِ والمغصوبة، استقبلته بمحـــاولات بائـــسة أن أكون أفضل منه، فالليلة الفائتة أبكيتني يـــا عـــبدالله كمـــا لم أبكِ من قبل، فيالك تضحكني وتُبكيني، وتـــبعدني، وتدنيني، وأنت مجردُ صورة خرساء باردة في هاتفي المحمول!.

قلتُ لمعاذ: أخبرني الآن من هيَ التي ستكون مثلها؟

رد: مثلك أنت، تتزوجين جدي، لتحبين رجلاً آخر!.

صـــمتّ قليلاً كان غضبٌ عارمٌ يكتسحُني: قلتُ له كيفَ تجرؤُ؟ أنت أحمق بائس شاهدته في حياتي، ألأنك كنت مجبراً على الذهابِ تنفّسُ كُرَبك فيّ، هكذا تتهمني باستغلال جدك، لست أنا التي تزوجته، متى كانت المرأة هي التي تختار هنا، لقد تزوجني هـــو، ولـــو لم يفعـــل لبقيت عانساً مقبورة في سجن الخطيئة، وجدتني أختار بين البقاء سجينة، أو التنفس بنصف رئة، بنصف حياة، بنصف قلب، كانت الضلوع المكبوتة تختار جدك، وتهرب بهلـــع مـــن السجن الانفرادي إلى سجنٍ أرحب قليلاً، بثلاث وجبات، وترفيه قليل، وبكاءٍ أقل، هل من الانصاف أن أحبه، أن أعامله كحلمِ حياتي، هل من الإنصافِ أن أتيم بجدك، بدلا من

أن أخدمـــه، بدلا من أن أُلملم تقززي لعشر دقائق يعاشرني فيها كل ليلة، هل من الإنصاف والشكر على اخراجه لي من السجن أن أتحول إلى الوجه الآخر لعجوزه التي ماتت!، ماذا كنت تريد مني يا معاذ، ماذا عليّ أن أفعل أكثر من هذا، أخدمه، وأتحملهُ، وأحـــاول عـــدم النظر إلى وجهه المليء بالتجاعيدِ حين يباغتني فجـــأة، وبعد كل هذا تريدني أن أحبه، كيف؟ من أين سأجيئ بقلبٍ غير قلبـــي الذي أعرفه، من أين سأجيئُ بصبر غير صبري الذي نفذ، من أين سأتجاهلُ كل هذا الشباب يفتر ما بين نهديّ كي يريقهُ كسمٍ كلّ ليلةٍ عنينٌ ستينيّ، كفى، كفى، أنت حقير، حقيرٌ جداً يا معاذ، لا أريد أن أراك ولا أسمعك، لا أريد.

كنتُ أبكي ووجدتهُ يمطُّ جسدهُ بكلّ قوته، ويقتربُ مني، يمسحُ دموعي ويقول، أنا آسف، كنت حزينا، ومقهوراً، كنت أريد أن أشعر أن ثمة من يُشاركني قهرهم.

تـــونس تثور على ديكتاتورية وفساد ابن علي، والليلة يريدُ معاذ أن يثور على أبيه، أيّ حظّ لحزني اللذيذ هذه الليلة!.

قـــضينا السهرةَ في اصلاحِ عطبٍ بكرسيه المَتنقّل، وشاهدنا فـــيلماً وثائقـــياً "من بين براثن الموت: صراع للبقاء "أحياءٌ في الأنديز 1972" أربعة عشر رجلاً وامرأة واحدة ينجون من حادثة تحطّمِ طائرةٍ، يبقيهم البقيةُ من جسمها كبيت - واعتصار الثلج لـــتوفير الماء، والتهام اللحم البشري النيء للأموات منهم- أحياءً ســـبعين يوماً في وسط متاهةٍ من الجليدِ والموتِ والريحِ والتشبّثِ

بالحـــياة، إنـــه التمـــسّكُ القوي بالرغبة في الحياة، تحدّي الموت بالتحديقِ تماماً في عينيه

أحياناً للبقاءِ على قيدِ الحياة، لإطالة آمالكِ في النجاةِ عليك أن تلـــتهم الجِيف، عليك أن تتجرّع المرار، عليك أن تقرر بين الموتِ والألم، بين الفناءِ والبقاء على الأمل، وهذا ما نفعلهُ حتماً، إنـــنا نلتهمُ الجيَف، نـــزدردها بالكثيرِ من التقزز نتشبّثُ بالبقاء أحـــياءِ فقط، أحياء فقط، وكيفما اتفق، ننتظرُ مثلما انتظروا أن نجد أثراً لحياة في متاهةِ الجبال والصحراء، منتظرين أن يأتي القدرُ يـــوماً بطائـــرات الإنقاذ، إننا نكتشف كلّ يومٍ قوة إرادتنا على الحياة، نكتشف كم نحنُ صامدين، كم نحن عصاميين، كطابور طويلٍ بقاعة انتظارٍ فسيحة.

الكتابةٌ لك، وعنكَ لا تُشبهُك، الكتابةُ تأتيني طواعيةً حين أريدها لك، وأنتَ لم تأتني يوماً طواعيةً بل كرهاً على كَره، في الكتابة تبدو حبيبـــي أكثر، تبدو حنوناً أكثر، في الكتابةِ أستطيع تقبـــيلك، في الكـــتابةِ أستطيعُ انتزاع اعترافٍ منك لم تقله، في الكتابةِ أستطيعُ احتجازك بين السطور، في الكتابة أستطيع حبّك أكثـــر، فكـــيف لا أدمـــن الكتابة، وكيف لا أحبك فيها وبها أكثر؟!.

ولأنّـــك بلـــيدٌ حين يتعلّقٌ الأمرُ بإشباع جوعي منك، من صـــوتك، وتكتفي دائماً بكلمة "وأنا أحبك بعد يا ريم" كيف دائماً لا تكونُ إلاّ صداي!، كيف دائماً لا تكون إلاّ ردة فعل،

كيف دائماً تتفرّج عليّ أحبّك بكلّ هذا الجزعِ ثمّ لا ينفطرُ عليّ قلبُك!.

تكـــتب لي الليلة في تذييل مقالِك، هناك من يشوهُ ويزيّفُ الـــتّأريخ، أبـــناؤنا ســـيحفظون تاريخاً مزيفاً، سيمجدون قتلة، ولصوص، وطواغيت، علينا أن نفعل شيئاً، لا يمكن ترك كلّ هذا النـــضال نهباً للصوت الأعلى والأكذب، علينا أن نكتب تاريخاً خفـــي، تاريخـــا سريّ، علينا أن ننقذ كفاحنا ألاّ يسجل باسمِ سجانينا، هذا ليس عدلاً يا ريم، ليسَ عدلاً.

وأتـــساءل بحسرة، كم يهمك المستقبل وتأريخُه يا عبدالله، تـــريدُ من شدة حرصك عليه أن تجعلني حتى أنا تأريخاً، تكتب بجانـــبه، و لم تخلُ البلد آنذاك من حبّ وتعشّق، وكانت النساءُ يُحـــببن المهاجرين أكثر، يحببن المارقين من الجبروت، وكنت أنا محبوبها آنذاك!. أريد أن أكون في تاريخك السري، الذي ستكتبه، لذلك سأتعمّدُ اعتراضك، واستفزازك أكثر.

متعبٌ جداً أن تناضل من أجلِ شيءٍ لا تضمنه، لا تؤمن بهِ بمـــا يكفي، لا تعرفهُ بشكلٍ حقيقيّ يصبح النضالُ فيهِ من أجل الـــبقاء فقط، من أجل الذات فقط، لا هموم مشتركة، ولا أيدي يمكـــنك التنبؤُ بالتصاقها فيما لو جاء الطوفان، هذا هو حالنا مع الـــوطن، الـــذي اختلطت أوراقهُ كثيراً، لم نعُد نميّزه، ولا يمكنُ الـــرهانُ علـــى انجاز فيه، لا يمكنُ سوى تجاهلُ أن ينهار يوماً، كمـــريضٍ بمرضٍ عصابيّ مجهولٍ ونادرٍ وعصيّ على التشخيص،

نحبسهُ كحبيبٍ أول في قبو قلوبنا، ولا نخبرُ أحداً عن خوفنا عليه، لا نخبرُ أحداً عن عدمِ تحمسنا لشفائه، لأنه حين يشفى لا ندري مع مَن منّا سيكون، مع مَن منّا سيتنكّر، هو كبيرٌ بما فيهِ الكفاية لــنخاف، مريضٌ بما فيه الكفاية لنتوقف عن تشخيصِ أمراضه، حبــيبٌ بمــا فيهِ الكفايةِ لنحبّهُ على علاته، لنتعصّب لهُ حتى في أخطائه، لنحنّ إليهِ حتى ونحنُ في فيه.

أن تولد مملوءٍ بهِ. مزهواً بهِ عن آخرك، تعتقدُ كل ما قالوهُ لـــك في المدرسة، ما قالهُ لك جدك عنه، ما ترنم بهِ الشعراء في كتابك الأناشيد، ثم تكبر لتكتشف أنه أضعف مما كنت تعتقد، وأن مــا علموهُ لك كان زيفاً، وأنّك لتضمن حبه وتقديرهُ لك يجــبُ أن تــرتكب الكثير من الأخطاء، يجب أن تبيع ضميرك لتــشتريهِ بـــه، يجبُ أن تعتمر قناعاً يناسبهُ، تخلعهُ في سجودك، وتعود لارتدائهِ حين تخرج من بوابة المسجد، تشاهدهم يسرقونهُ، تشاهدهم يشوهونهُ، تشاهدهم يمتصون روحهُ وأفراحهُ ثمّ تصفّقُ عالياً كما أمرك معلّمك في الصف الأول الابتدائي، هو من يحدد مـــن نصفق له، وهو من يقصينا حين لا نصفّق، يزجرنا ويأمرنا بالتصفيقِ بصوتٍ أعلى، بقصائد أطول، بمدائح لا تنتهي، وبهوانٍ عليك تدبّرُ أمرهِ فقط حين تكونُ وحدك.

أصبح الخوفُ يحيطُ بنا من كلّ الجهات، أصواتنا التي قبرناها عـــنوةً باتت تنهشُنا من الدّاخل، تعرّينا من الأمن، تجعلُنا دائمي الـــتلطف والتبريـــرِ والصلوات، لا يمكنك توقعُ ردة فعلِ سجينٍ

مقهورٍ أطلقتهُ فجأةً للحياةِ وما زلت أمامهُ أعزل، سيقتلك، هذا ما ستفعلُه بنا كلماتنا المقبورةُ حيةً في داخلنا، تعامَلْنا معها بضميرِ سفاح، رأيناها تتنفسُ، وتنادينا، ونحنُ نحثو عليها تراب الخرس، قلت مرّةً "ليس من الضروري أن يتحدث الشخص بكلام مفيد، المهـــم أن يتحدث أولاً، أن يتقن لغة الثرثرة، ويخرج مكنونات نفـــسه، ثم ســـيتعلم في مرحلة لا حقة كيف يجعل الكلام أنيقاً، وكـــيف يرتبهُ كأزرارِ قميصه" لكنّنا ما زلنا لم نتمكن من اقناعِ كلّ هذا الوجع الصامت كيف يكونُ أنيقاً، من الصعبِ أن تقف أمـــام قاتلك، وجلادك لتخبرهُ كم هو اليومُ جميلٌ بوجوده، كم أنـــت ممـــتنٌ للحـــياةِ بوقوفك أمامه، كم ان انجازاته ونجاحاتهُ ورقـــصاتهُ على جثمانِ أحلامك وحقوقك كانت متقنه، كانت مـــثيرةً وطـــروبه، مـــن الصّعبِ أن نجعل الغضب أنيقاً هكذا يا "عبدالله" لذلك حين يأتي اليومُ الذي تثور فيهِ كلماتنا المقبورة وتتـــزاحمُ في الـــنهوضِ من قبورها إمّا أن نصفها سيهلك لأن الأقوى سيدهسُ الأضعف، وإما أنها ستخرجُ مع بعضها فتختلطُ لتـــصبح صـــراخاً أهوج، صراخاً مزعج، صراخاً لا يمكن لأحدٍ فهمهُ ولا حتى احتمالُه.

ســـيقتلنا صوتنا فجأة وبعنف، كما أحيانا صمتنا لسنواتٍ وبالتدريج، هذا ما يحدثُ حين نعتادُ حالة الهوان، حالة التخلف، حالـــة الضحية، تصبحُ عملية الخروج منها مأزق، ولادةٌ جديدة علـــيك أنت أن تدفع فيها وعليك أنت أن تقطع الحبل السري

أيضاً، عليك أن تكون شجاعاً بشكلٍ بالغِ الجسارة لتتمكن من توليدِ نفسك بنفسك من رحمٍ ميت!، الذين فعلوا ذلك انطلقوا بعــيدا لم يعــودوا يشبهوننا، لم ينظروا يوماً إلينا، فمن العارِ أن تحتفظ بصورةٍ لبؤسك، أو أن تلتقيها كل صباحٍ بوجهك، وأنت انتصرت عليها، هذا ما يفعلونه، نصبحُ آخرين جدا بالنسبة لهم، يصبح من الصعب عليهم حتى الشفقة علينا.

بدر يحدثني الليلة على هاتفي عن حبهِ لي، ولا يحضرني سوى حبــي لك، يخبرني أن والداه قررا تزويجه ابنة عمهِ في قريتهم، وأنه يــشعر بالألم، ويعتصره فراقي، ولا يحضرني سوى اعتصارك أنت لروحـــي، لمباهجي، لأنوثتي، ورغباتي، لم أعط بدرا يوما ولا حتى كلمـــة تـــدل على اهتمامي به، على اكتراثي له، كنت أمتن فقط لوجـــوده بكل هذا البياضِ في عالمٍ يضج بالسواد، كنت من خلاله أرى بـــصيص ضـــوءٍ في الرجل، الرجل الذي كبرنا على أنه غدار وخـــائنٌ وشهواني، ومتعدد، كان بدر بالنسبة لي استغفاراً للصورة القاتمة التي كونتها من أمي وكونتها هيَ من أمها عن الرجل.

أن تكـــون مجرد عتبةٍ في سُلَّم امرأة تبتسمُ في وجهك لأنها تـــرى طيف حبيبها خلفك، فهذه مأساةٌ وحقارةٌ لم أكن لأجرؤ علـــى اخبارِ بدرٍ بها بكلّ هذا الوضوح، فالمرأة لا يثيرها الرجل البـــسيط والمـــسالم والمتسامح يوماً، لقد خلقت لتحب الرجل المـــركب، الـــرجلُ الذي يكونُ قادراً على الخبثِ بضميرٍ ميت، الـــرجل الذي تتحدث معه لساعات ثم لا تفهمه، الرجل الذي

تعيشُ معه سنوات ثم لا تتنبأ بردة فعله، الرجلُ الذي لا يعاملها بـــشفقةٍ وإنما يعتبرها ندهُ ومعبودته أحياناً، الرجلُ الذي يحتفظ بحزنه لنفسه، ويوزعُ أفراحه عليها كل يوم.

تركته يتوهّمُ احساسي بالأسف تجاهه، تجاه ما لم يكن بيننا، تـــركته يـــتوهّمُ كوني ناقمة على والديه، فلست أنا التي تطلب الطلاق من رجل لا تحبه لترتبط بآخر لا تحبه، إنها مضيعة للعمر، وبـــدر كـــان شاباً لا يستحقّ مني أن نسهر يوماً على أغنية لا تذكرني سوى بِك، وأن نتأمل يوماً مشهداً لا يحفزني سوى على تمني أن تكون أنتَ معي فيه، أن أبقيهِ في وهمهِ الجميلِ، ثم يرحل وينـــسى، خـــيرٌ من أن أتحول إلى واقعه المؤلم بكاملِ ارادتي، أن أصـــبح حـــزنه الذي اقتطفهُ بيديه، وألمه الذي حفر جروحه في دهاليز روحه بإصرارٍ وتفاني، قلت له أن النسيان صعب، مع أنني مـــا تذكرته أصلاً لأنساه، وقلتُ له أن الزواج سينسيك مع أن الـــزواج هو الذي يذكرني بك كلما خلدت إلى فراشي بجانبِ جـــسد أنفـــر مـــنه، وأهرب بخيالاتي إليك، قلت له الكثير من الكذب، ونـــزراً من الصدق، فنحنُ في الحقيقة قبيحون جدا من الـــداخلِ حين يتعلّقُ الأمر بما نريده، يمكننا قتلُ ذكرى شخصٍ بوحـــشية وامتنان، لإحلال آخر نعتقدُ أنه أفضل لحياتنا، أفضل لتحقيقنا لرغباتنا، أفضل لحبنا أنفسنا أكثر.

كنتُ مليئةٌ بالفجيعةِ والفقد حين جاء بدر، وكان مريحاً أن أتناسى ألمي فيك به، أن أستخدمه كضمادٍ لجروحي، كممسحةٍ

لدموعي، كجوربٍ لحفاءِ روحي، كفيلمِ تسليةٍ لمن أصابهُ الأرق مـــن الصعبِ أن نعترف باستخدام انسانٍ كما نستخدم أشياءنا، لكن هذا بكلِ فجاجته كلّ ما فعلتُه ببدرٍ، كان متاحاً وأنا أجيد اســـتخدام الـــرجالِ جـــيداً، أجيد تمريرهم على جراحاتي برفقٍ كمساج، أجيدُ اختطاف قلوبهم المفتوحةِ بسذاجة.

أن أنكشف أمامك على السطورِ بكلّ لؤمي، ونصيبـــي من مكـــرِ النساء وكيدهنّ، فهذا يعني أن الكتابة فعلُ تعرٍّ داخليّ لا يتوفرُ بشاطئ للعراةِ في أيّ مكانٍ في العالم، هيَ فعلُ اغتسالٍ ما ونحنُ حتّى نغتسل لا بد أن نتعرّى أولاً.

أردتُ اخـــبارك أنـــني لم أكن يوماً نبيةً، ولا مومساً، ولا قديـــسةً، ولا ملاكاً، ولكنني كنتُ وما زلتُ عاشقة، كنتُ وما زلتُ مسافرةً إليك، وفي الطريقِ يحصُل الكثيرُ من الأحداث التي أســـيرها معـــي لوجهتي، أستخدمها زاداً على السّفر، أستغلّها بأفضلِ الطرقِ الممكنةِ للوصولِ أسرع.

** ** **

اســـتيقظتُ صباحاً على خبرِ موتِ جدي لأبـــي، لم يعد لديّ مخزون من الحزنِ لأبكي، فصمتّ، كان جدي منذ تزوجت مجاوزا للمائة سنة، يعامل كطفل في أكله وشرابه وقضاء حاجته في حفاظ، العمر يأخذ نصيبهُ من المتمسكين بالحياة، يبدو لي أن جدي كان ميتاً منذ فقد القدرة على ايقاف أبـــي عن ايذائنا أو

التـــضييق علينا، أن يطول مقامُ جثتك على الأرضِ وهي عاجزة عـــن المـــوت وعـــن التوقف عن التعب فهذا مؤلم جداً، يصبح أحباؤك يتمنون رحيلك، يصبح ألمك أكبر من أن يُطاق، ووحده المـــسن يقـــال عند موته "الحمد لله لقد ارتاح أخيراً" مع أننا لا ننفكُّ ندعو لمن نحبهم بطول العمر!.

لي مع الموتِ حكايةٌ مدهشة قبل سبع سنواتٍ كنت أجلسُ في صالة الجلوس حين دخلت جدتي كمصعوقةٍ ومذهولةٍ ولكن بـــثقةٍ نظرت إليّ وقالت: لقد جاء موتي، اذهبـــي لنداءِ أبيكِ، أريدُ اخبارهُ بكلماتي الأخيرة!.

شعرتُ بقشعريرةٍ تسري إلى كلّ خليّةٍ في جسدي، أخذتُ وقـــتاً لأستوعب ما قالته، ووقتاً لأصلب جسدي وقوفاً ومن ثمّ أحرك رجليّ بتثاقُل، ونظرتُ إليها كانت تعبر الغرفة ذهاباً وإياباً كمن ينتظر، كانت شامخةً لتستعجلني بنبرةِ صوت كأنها صديقةُ الموتِ منذُ ولدت، لم أجد أبـــي وجدتُ أمي، أخبرتُها أن جدتي تنتظـــرُ أحداً ما تقولُ بأنه الموت، هي مستعجلة، ربما ليس لديها الكثيرُ من الوقت! ".

بعدها بساعةٍ جاء أبـــي لتوصيهِ بكلماتها الأخيرة مع أنها لم تكـــن مريـــضةً، ولا تعاني من أي خلل نفسي، كانت تشرب حليب الناقةِ وتأكل التمر، وتشرب الماء فقط، سمعتُها توصيهِ عليّ كانت تسميني "المسكينة" قالت: لا تؤذها بقسوتك وقسوة الناسِ أكثر، بعدها بثلاثِ ساعاتٍ كانت جدتي محمولةً على الأكتافِ

في عـــالمِ الموتِ، رائحتها مازالت ملتصقةً بـــي، ما زالت تجيءُ حـــين يجيءُ الحزن، مازالَ وجهها المضيُ كبدرٍ ليلةَ تمامهِ يزورني حـــين يُحاصرني اليأس، وتساءلت كيف عرفت جدتي الموت؟، وهـــل كان معنا في تلك الغرفةِ حين نادتني؟، وهل هو رجُل أم مـــاذا، وهل يقفُ أم يضطجع؟، وكيف استطاعت جدتي أخذ فسحةٍ منه لتوصي أبـــي بوصيتها الأخيرة؟، هل رآني أنا أيضاً؟ هل يعرفُني جيّداً؟، في ماذا فكر حين رآني؟، وهل سيجيئ عندي كما جاء لجدتي كصديق يستأذن؟.

الموتُ جاء مؤلماً حين أخذ جدتي، وجاء رحيماً حين أخذ جدي، وما بين زيارةٍ له وأخرى يُفزعنا قربنا منه، مرورنا بجانبه، حديثُـــنا معه، سخريتنا منه، الموتُ الذي ينهي حرارة الجسم هو الوحـــيدُ الـــذي لم نذُقهُ هنا، فمن قالَ يوماً أنّ الموت يأتي دُفعةً واحـــدة؟!، إنـــنا نعيشُ أنواعاً من الموتِ هنا، الصمتُ موت، والظلـــمُ مـــوت، والهجرُ موت، والنومُ موت، والعنفُ موت، والزيفُ موت أيضاً.

لم تـــسعفني كلماتي البائسةِ في عزاءِ جدي، و لم أرَ ضرورةً لزيارةِ بيتِ والدي لمجرّدِ التظاهرِ بالحزن، فالتظاهرُ بالحياةِ هو ما يؤرقُني كلَّ يوم، و لم يعد هناك متّسَعٌ لتظاهرات أخرى.

قتُ لأمي: حسناً، ليرحمُهُ الله، وأغلقتُ هاتفي بعدها فوراً.

تـــوجّهتُ إلى مقهـــىً يقدّمُ طعام افطارٍ شعبيّ – في منطقةِ الـــبلد– للقـــاءِ العروبيّ المهزوم والدِ زميلتي في العمل سُهى، هو

سـعودي مـن أصلٍ سوري، يقتربُ من السبعين، ويقرأ رواية "زهايمـر" للأديـبِ غـازي القصيبـي، كان لديّ مع سهى موضـوعٌ صحافي عن القوميين العرب، أو مع فلولهم على نحوٍ أدق، قالت لي سُهى إن جلسة مع والدها ستكون كفيلةً بكتابةِ قصة جيدة عن واحدٍ من أكثرِ المتعصبين لها، للدرجةِ التي مازال وحـدهُ يهذي بها بين وقتٍ وآخر، حين تزورهُ نوباتُ الزهايمر، اسمـهُ "نصري" عجوز وقور، سمينٌ وأبيض بحمرة، يرتدي ثوبا سعودياً ويترك لرأسهِ الأصلعِ العنان ليتطهر بالشمسِ من أحلامه التي أكلها شبابه، أن تجالس منكسر قادر على التعويض، خير من أن تـشفق على مكسورٍ لم يعد بإمكانه فعل شيءٍ سوى انتظار المـوت، هذا مؤلم، رأيته في عيني العم "نصري" وحاولت تجاهله لإكمال ما جئتُ وسهى من أجله.

قـالَ "قُـضي على القومية العربيّة، أُجهضَ حلمُ الوحدةِ، والعـروبة، قضى علينا الليبراليون العملاءُ، والماسونيون الحقراء، والاسلاميون المتطرفون، كنا اقتربنا من الحلم، أو هو اقتربَ منّا كـدنا أن نـصدّقه، انتـشينا معهُ في نشيدِ "موطني" لكنّه تبخّر كعَرَقنا الذي صنعناها به، وبقي حزنا لذيذا كقصيدة، بقي حلما خفيفاً كموسيقى، اللعنةُ على حكامِ العرب، يتحدُ الشياطينُ ولا يتحدون!"

كأبٍ كنتُ لأحبّه، فهو لطيفٌ وكسير بوجه جميل، قلت له "والآن يـا عمـي، لمـن توجّهُ قبلتك، لمن تدينُ بالولاء، قالَ:

لجيبـــــي، لجيبـــــي فقط! هو من بإمكانه ابقائي كريما هُنا لا شـــعارات أكثـــر فالعمر لم يعد يحتملُ والقلب لم يعد به مكانٌ لكذبة جديدة.

في الطـــريقِ إلى الجامعة بعد العاشرةِ صباحاً، بعدما ودعتُ سهى ووالدها، وصلتني رسالةٌ من ريما تطلبني أن لا أنسى متابعة حلقـــتها اليوم في برنامجها الاجتماعي عن الأمن الفكري بمدارسِ التعليم العام، كنت قد أرسلت لها تقريراً طلبته مني قبل اسبوعين عن نفس الموضوع، أتمنى أن يكون مفيدا لما سيطرح في الحلقة.

تذكـــرتُ أنني لم أقصص عليك حكايتي مع ريما بعد وكم أتجاهـــلُ هـــذهِ الحكايـــة كلما جاءت، فهي المرأة الوحيدة التي أحـــرصُ على صداقتها فقط لأن قلبـــي يشتعلُ بالغيرة!، المرأة الوحـــيدة التي قالت لي عن طريقِ الصدفة أنها تعرفك، بل وأنها تحـــبّك، آلمني قلبـــي جداً في المرةِ الأولى كرصاصة استقرّت في الـــوريد، لكنني لم أوضّح لها شيئاً، وما زلتُ حتى اليوم لا أدري هل قصدتها أم إنها كانت تريدُ توضيح كم إنك قريبٌ من قلوب من تشاركه همومه، ونشاطهُ، وحلقات برنامجه.

عرفتُ ريما قبل سنتين، حين أرسلتُ لها تقريرا مصوراً عن شيخ يستفرد بالنساء للقراءة عليهن ويمسك أثناء قراءته أماكنهن المحـــرمة، ويدعـــي أن ذلك مكان الجن في أجسادهن المسكونة، أعجبها التقرير واتصلت بـــي على الفور وطلبت مني حق بثه في حلقـــتها التي تتناول موضوع العلاج بالقرآن والعلاج النفسي،

وتستـــضيف أنـــصاراً لكلا العلاجين، قلتُ لها في المرةِ الأولى "استضفتِ الكاتب عبدالله في احدى حلقات برنامجك هو الوحيد من ضيوفكِ الذي أعرفه، قالت نعم عبدالله مهضوم كتير وبحبّهُ" نطقـــت بـــتلك الكلمة، وسكت شيءٌ ما في قلبـــي من هول الصدمة، ومنذ ذلك اليوم كلما جاءت لجدة أو اتّصَلتُ بها هاتفياً أتحاشـــى ســـؤالها عنك أو أن تأتي سيرتك فيكونُ ظني حقيقياً، أحاولُ أن أبقي ذلك في دائرة السؤال، وأدفع بتجاهلي كل خيطٍ للإجابـــة، لأن الـــسؤال مهمـــا كان صعباً دائماً هو أرحم من الإجابـــة، أكثر رفقا بنا منها، أكثر وقوفاً إلى جانبنا منها، وأنت كنت وما زلت وستبقى سؤالي الذي لا أبحثُ له عن اجابة.

** ** **

تـــبدو ريمـــا كمذيعة جميلة جدا على الشاشة لكنّها حين جـــاءتني بجدة - والتقيتها بالمطار- أكثر جمالاً، وأقرب للقلب، لـــديها عيـــنان واســـعتان وشعرٌ ذهبـــي، وأنف طويل ووجهُ مُستدق، وجسم معتدل الوزن، تملك عائلتها بيتاً في جدة فوالدها سعودي، ووالدتها لبنانية، كان والدها يعمل في السفارة السعودية بلبـــنان وهـــناك تزوج بأمها، وقضت طفولتها وصباها بلبنان، والتحقت بجامعة أهلية بجدة لكنها تركتها بعد أن عرّفها والدها علـــى مديـــر البرامج بالقناة التي تعمل لها حالياً، أُعجب بجمالها وثقافتها واتقانها للغة الإنجليزية، فأصبحت بعد ذلك بسنتين أشهر

مذيعـــة بقـــناة تـــشتهر بمواقفها الجريئة، ووقفوها ضد التخلف والقمع في مقابل دعم الحريات والثقافة، وانطلقت ربما بعد ذلك لتتبوأ الصفحات الأولى في الصّحف بآرائها الجريئة، ووقوفها من الـــرجل موقف الند والغريم، تعصبت لبنات جنسها حتى أسمت برنامجها باسمهن، وراحت تتابع قضاياهن وتتلمس النور لدروبهن، وتتحدث بصوتهن ليصل، كانت قويةً لتقنعني بصداقتها، متطرفةٌ لتعفـــيني من الإخلاصِ لها، فهي لا تمقت الإسلاميين والدينيين فقـــط، بـــل وتعتبرهم مشكلةُ العالمِ الوحيدة، وخلاصه مرهونٌ بـــالخلاصِ منهم، في جلستنا الأولى ببهو الفندق الذي سكنت به - فقد فضّلت عدم الذهاب إلى منـــزلهم وهو خالٍ من كلّ أحد فوالداها مستقران بدبـــي حالياً حيثُ تعمل - كانت تشعر بالـــضيق لاضطرارها ارتداء عباءةٍ ولو بشكلٍ سافر، حدثتني عن برنامجها كثيراً، وكيف أنها تتعب جدا في الوصول إلى ضيف لا يخـــاف ضيف سيجيب عن كل أسئلتها بلا تردد، قلت لها: هل مـــن الـــسهلِ أن يغامر الشخص بحياته من أجل ظهور تلفزيوني لنـــصف ساعه، الأمر معقد، يجب أن لا تلوميهم، فهم جزء من تركيبة معقدة، وسيغادرون البرنامج لينعموا بأقل مستويات الحياة شـــاكرين، فكيف تريدين لأحدهم أن يعود مكبلاً، أو مفصولا من عمله، أو موضوعا في القائمة السوداء بالمطار؟!.

قالت لي "ينادي عليّ المنسق الإعلامي أكثر من مرةٍ ليعرض عليّ عرضاً جاءهُ من أحدِ الوجهاءِ، أو رجالِ الأعمال لقضاءِ ليلةٍ

معـــي"، في الـــشهر الماضـــي استضفتُ أحد الوجهاء، في نهايةِ التـــصوير عرض عليّ سيارة من فيراري إذا قبلت أن أمارس معه الجنس لعشر دقائق.

يعتقدُ الكثيرون من بهائم العرب أننا خلقنا لمتعتهم فقط، أن تكـــوني في مكـــان عملك، وتكون مهمتك تنويرية، وضيوفك جلـــهم من المثقفين وحملة الشهادات، ثم لا ينظر في نهاية الأمر سوى لجسدك، فهذه مشكلةٌ كبيرة جداً.

قلـــت لها: يجب أن لا تبالغي، في كل دول العالم تتعرض المـــرأة الجميلة، والناجحة إلى تحرشات، المسألة ليست متعلقة بالبهيمـــية، إنهـــا متعلقة بطبيعة البشر، ليس عليهم أن يكونوا أفضل من أحد طالما أنهم أسوأ العالم في كل شيء، أنتِ تسرفين في زينتك، في اظهار فتنتك أكثر، ثم تطالبين الرجال أن يغضوا نظرهم عنكِ هكذا بكل بساطة، احترموني أيها الناس فأنا مجرد انـــسانة أعتز بنفسي وأحبها وحبـــي لها يجعلني أتجمل أكثر!، ليس خطؤك ولا خطؤهم، هي علاقة طردية، لن أعترض على تجمّلك، ولن أستغرب تحرشاتهم، هكذا تأتي الأمور، صحيح أن التحـــرش بكل أنواعه مصنف على كونه جريمة في الغرب، وله عقوبات تتفاوت بين السجن والغرامة، لكن ذلك لا يمنعنا من الـــتفكير في من هو المخطئ تحديداً، من هو الذي تجاوز حرية الآخـــر أولاً، أســـتطيع أن أكـــون حرةً وجميلة، ومثيرة، لكن الآخـــرين لا يستطيعون أن يكونوا ملائكة، وأستطيع أن أكون

محتشمةً ثم أعتب على عدم احترام الآخر للحدود التي وضعتها أمامه.

ردت: يبدو أن بريدة لم تغادر قلبكِ أبداً أيتها الوهابية!.

قلـــت لهـــا: كفاكِ يا ريما كانت هذه وجهةُ نظري وأنتم تدعون أبوة حرية الرأي، فهلاّ كنتم أباءهُ حقّاً!، وإلا أعيدوه إلى ميتمه ليعامل كلقيط كما كان أول الأمر.

ضحكنا وهي تقول حسناً أنا أمه التي حسرت له عن نهدها ليرضع، ففضل بدلا من ذلك أن يتحرش بها.

حدثـــتني ريما بأحداث كثيرة عن عملها، كنت كمن يضع قلـــبه على يده أن لا يأتي اسمُك فأكرهها، أتركها فجأة، أخدش وجههـــا بأضفاري وأرحل، لم أكن أحتمل مجرد الشك بوجود امرأة تحبّك معي، فكيف لو كنت أنا التي أنيط اللثام عن الشك لتفجعني الحقيقة؟!.

أخـــبرتني عن قصتها الغريبة مع الداعيةِ المشهور، والذي كانـــت تحـــرصُ على استضافته في أغلب حلقاتها ولو خارج الاستديو ليمثّل رأي الدين فيما تطرحه من قضايا، تقولُ كان هـــذا الـــشيخ فجـــاً معي في بداية الأمر، وكان لا يرد على اتـــصالاتي وإنمـــا يعطي سكرتيره كي يتفاهم معي حول وقت ظهوره وأسئلة الحلقة وموضوعها، لم أستغرب ذلك فأنا أكره كل رجال الدين وأعتبر رأيه مهماً للناس وليس لي، فالناس ما زالـــوا يقيمون رأي الدين وفتاوى العلماء، ومايرونه على كل

شـــيء آخر سواء العلم أو التجربة أو المصلحة، ولا بد ليظهر البرنامج مستوفيا لكل أطياف الفكر أن أستضيفه، كنت أحاول التلطف قدر الإمكان في وجوده، وكان ينظر إلى الأرض دائما حـــين نكون سوياً، ولا يرفع بصرهُ إلا حين يريدُ أن يتحدّث، كان حياؤه المبالغ فيه يزعجني أشعر بهِ يتصنّعه، وكنت أتعمّد في وجـــوده أن أخـــبر زميلتنا المخرجة أنني لا أصلي، وأنني لا أحـــب الرســـول لأنه تزوج بتسع نساء، ولا أحب آية ضرب المـــرأة في القرآن، ولا أحب ربط الإسلام لزواجها بولي الأمر، ولا أجـــد جـــواباً لصديقي الفرنسي حين يسألُني لماذا تغطين وجـــوهكن وأيـــديكنّ يبدو شكلكن مثيرا للسخرية أكثر من الاحترام؟!.

العجـــيب يـــا ريم أنه كان يناقشني بهدوء في كل رأي، ثم يبتـــسم حين أرفض رأيه بكلمات جارحه له، ويسألني كم بقي على بداية الحلقة؟!.

كـــان يأتي في الحلقات المهمة إلى دبـــي، وحين يكون بها يأتي يوميا لمدة اسبوع إلى مركز القناة ويضل بقسم السكرتارية طـــيلة الـــيوم، ثم يـــذهب، كل زملاء العمل كانوا يستغربون وجـــوده، وكل واحد يعتقد أنه جاء للتصوير، وأنا أشعر بشيء غريب لكنني لا أستطيع تحديده بالضبط.

بالنـــسبة لي كـــان متطرفاً جداً، أراءه مقصيه جداً للمرأة، ويعتـــبرها فتـــنة على الرجل وعلى الدين لذلك بذلت قصارى

جهدي على أن لا أتصادم معه، فهو مرشحٌ من قبل مدير القناة وعليّ احترام ضيوف تم ترشيحهم بشكلٍ أعلى مني،

ذات صباحٍ وفي وقت توقفِ البرنامج، لتغيير الدورة البرامجية، وجدته واقفاً ببابِ مكتبي مذعوراً وقال: يجب أن نتحدث.

قلت لهُ يُمكنك أن تتفضّل في مكتبي وسنتحدث، قال: لا يجب أن لا تكوني بمكتبك اليوم ظهراً أرجوكِ الأمر مستعجل سنخرج معاً من هُنا!.

رفضت في البداية، وأمام الحاحه الشديد وبعد أن قال "المسألة فيها موت أو حياة لا تفهميني خطأ يجب أن لا تكوني هُنا" خرَجتُ معه، وأنا متوترةٌ جداً وخائفة.

حين خرجنا مشيتُ لأركب سيّارتي، فحذرني وقال: لا اتركي سيارتكِ هُنا سنذهبُ بسيارتي أنا كان خوفي قد بلغ أوجهُ لذلك لم أمانع الهروب بأي وسيلة، تركت سيارتي وركبت معه، قال لي: في المقعد الخلفي لو سمحتي، وجدت امرأة في المقعد الخلفي ترتدي عباءة ونقاباً وتتحدث بلهجة عامية جدا، في البداية أردت النزول، اعتقدت أنني في مؤامرة، قلتُ لنفسي، هذا لن يمرر لي سخريتي من الدين ورموزه بهذه السهولة، لا بد أنه عزم على تأديبي، خصوصاً أنني تذكرتُ الجلبة التي للتوّ أحدثها تصريحٌ ناريّ لي عن وجود الغناء والمعازف بعصر النبوة، تذكرت ذلك بعجالة وأنا أهمّ بالخروج.

قال: انتظري، إنها أختي الكبيرة، امرأة مُسنة لكنها الوحيدة المتفرغةُ بين أخواتي التي وافقت على مرافقتي من الرياض لدبـــي، لا أريد أن أختلي بِك.

تـــراجعتُ ورميتُ بثُقلي على المقعد الخلفي، وأنا أنتظر تفسيراً لهـــذا الخـــروج الذي يبدو أنه اختطاف سلميّ، سلمتُ على أخته وســـألتها كيف حالها مع أجواء الحرارة في دبـــي، حاولت تخفيف توتري قليلاً لكن قلبـــي كان يزداد خفقانه كلّما ابتعدنا في الشوارع أكثـــر، تحسست هاتفي المحمول في حقيبة يدي، وتأهبتُ للاتصالِ بالـــشرطة في حالِ حدث لي مكروه، حين وصلنا إلى الفندق الذي ينـــــزل فـــيه، طلـــب مني وأخته النـــزول، وقال: سنجلس الآن وسأفهمك على كلّ شيء فقط اطمئني لقد أصبحتِ الآن في أمان.

بعد أن طلبتُ قهوة سادة، وطلب هو وأخته شايا بالحليب، طلب من أخته أن تصعد للأعلى لترتاح، وبقيتُ أنتظر أن يفرج عن سرّ وجودي هُنا بكلّ هذهِ السرية.

قال برفق: ما كان عليكِ استفزازهم هكذا بضرباتٍ متتالية، الناس أصبحت تسمع باسمك كما تسمع بسلاحٍ جرثومي، أنتِ مخطـــئة اذا اعـــتقدتِ أنهم سيبقونك سالمة من الأذى، يمكنهم التحمّل لفترة، بعدها عليكِ أن تدفعي الثمن.

قلت: من هم، هؤلاء الذين سيؤذونني،

قال: اليوم ظهراً، موعد تصفيتك في مكان عملك، على يد شابين مُحتسبين، اعتبري نفسك خرجتِ اليوم من قبضة الموت،

عـــدتِ للحياة، وابتعدي عن كل هذه الزوابع، لماذا عليكِ أنتِ بالـــذات أن تكـــوني بوقاً لهم، لماذا عليكِ أن تكوني كبش فداء للمجرم الحقيقي؟!.

قلت: ما زالت لم أفهم، كيف عرفت أنني اليوم سأقتل، وما الذي يدفعُك لإنقاذي؟!.

قال: كنت البارحة في استراحةِ الشيخ عبدالواحد الدعوية، لدينا فيها اجتماعات اسبوعية لتباحث أمور الدعوة، ويحضرها رجـــال وشـــبان وأطفال من جميع الأعمار، جاء الحديث عن مقالك الجديد قبل اسبوع، لعنك أحد الشباب، وذكر آخرٌ كل آرائـــك الـــسابقة، وذكروا أنك مدعومة من شخصية معروفة ووجيهه، واقترح أحد الشباب الذي كان يغلي من الغضب أنه لا بد من اسكاتك إلى الأبد، فأنت لم تعودي تمثلين رأيك، بل أصبحتِ خطراً لأن صوتك بات مرتفعاً وقادراً على الوصول إلى كل وسائل الإعلام، والرد عليكِ وتفنيد كلامك أو تأييدك يمـــلأ الإنتـــرنت والـــصحف، فكان اتفاقهم بشهادة كبارنا ومباركتهم "أن قتلك نوع من الجهاد، وأن اباحة دمك عمل يتقرب به العبد إلى الله"، وكبّر الجميع، ونذر الشابان نفسيهما لتنفيذ الحكم وبعدها، بساعة واحدة فقط، كنت وأختي بمطار الرياض، قادماً من غير هدى، ولا تفكير ولا تراجع لإنقاذك، هكذا لا أريد سوى أن لا تموتي، هل ستكونُ هذه خطيئتي في نظرِك؟.

كـــدتُ أبكي من هَول الصدمة ومن تفانيهِ في انقاذي، مع كـــوني لا أشـــترك معه بشيءٍ أبداً، تلعثمت كثيراً، واختنقت الحـــروف في حلقـــي، ونظرت إليه أكثر من مرة، وكان يُشيح بصره.

قلتُ بشفقة: هل تحبني؟!.

لم يـــرد علـــى سؤالي، وإنما استرسل في حديثه من جديد، مـــبعدا عينيه أن تقعا في عيني، وقال: الأفضل أن تأخذي اجازة مـــن العمل لمدة شهر على الأقل، اجازة من كل شيء حتى من الكـــتابة، وأن تتركي دبـــي كلها، أستطيع تدبر أمر تذكرتك واقامتك، اختاري أي دولة في العالم وستكونين فيها في غضون ساعات، فقط عديني أنكِ ستختفين عن الأنظار فترة وجيزة.

احتجتُ وقتاً لأستعيد توازني وأسأله: وأنت ألستَ منهم، ألم تُكبّـــر معهم على قتلي، ما لذي يدفعك لخيانتهم، أفكارهم هـــي ذاتهـــا أفكارك، وتطرفهم أنت من يغذيه كلّ يومٍ بفتوى جديـــدة، وقـــوتك هـــي السلاح الذي يحتمون تحتهُ لإسكاتي، لإخراسي إلى الأبد.

نظـــر إليّ بنظرةٍ يملأها الحزنُ والشرود وقال: لا يمكنُكِ أن تفهمي مهما قلتُ لكِ، وجدتني مربوطاً بهذا الدربِ من عُنقي، لقـــد جـــدّفت معهم بإخلاصٍ طوال عمري، الآن توقفي عن الـــتجديفِ ســـيعني أن أغـــرق، لا يمكنني المجازفة من وسطهم بالتجديفِ عكسهم، التيارُ بات أقوى مني وأنا فرد، واحد، يكتم

ايمانه، أصبح الوجود في هذه الجلبةِ وكوني رمزاً هو حكمٌ مؤبد، لم يعد في امكاني التراجع، وإلاّ خسرتُ كلّ شيء، الموت وحدهُ هـــو الذي يخلصني من كلّ هذا الكذب، من كلّ هذا التلفيق، ســـيبيحون دمي، سأخسرُ عائلتي، سأخسرُ جمهوري، سأخسر وجودي الذي اعتدتُ عليه، لا يمكنني فعل ذلك أبداً.

واصلَ حديثهُ بعد أن ارتشف كأسه دفعةً واحده: ربما أنتِ جـــزءٌ مـــن مؤامرةِ العقلِ ضدي، من سيلِ الأسئلةِ التي تجرفُ أساســـاتي المبنـــيةِ علـــى الحدسِ فقط، حين عرفتك أول الأمر، اســـتقبحتُك، وجـــدتك وجها من وجوهِ الشيطان، كنت أفكر كيف لا يمكنني قتلك بعد كلّ استفزاز منكِ لثوابتي، شيءٌ ما في عينـــيكِ كان يوقفني فجأة ويقودني أخرى إليكِ لا عليكِ، شيءٌ ما في قلبـــي كان يسرعُ باتجاهِك أكثر، يقطعُ الدرب على كلّ ضغينة، ويقنعني بكلامك من حيثُ لا أدري، احتفظتُ بمقاطعك في اليوتيوب، وصورك في المجلات بجهازي في ملفّ سري، كنت كلّمـــا اختـــنقتُ منهم فتحته فتنفّسته، وعشتهُ، مرٌّ وعلقم طعمُ الحياةِ بلا حب، طعم الحياةِ في ظل القيود، أنا كالعبيد، لا أقول إلا ما يقولونه لي، ولا أفتي دون الرجوعِ إليهم، ولا أحلق لحيتي خـــوفاً مـــنهم، استعبدت نفسي بنفسي، قيدها بسعادة، قيدها بشعورٍ جارف بالنصر، بالصلاح، بأحلام الجنة والاستعلاء على مـــباهج الدنيا، فوجدهم أول من يورطني في الشبهات، أول من يـــستلم الشيكات ويودع الأموال في البنوك الخارجية، وجدهم

يجادلـــون في ســـعر أرض، أو في مهر طفلة أعجبتهم، وجدتهم يلعبون على وترِ تأويل النصوص للسماح لبنكٍ ربوي أن يكون اسلامياً، يوقعون الوثائق المزورة باسم الله، وجدتهم لا يُصَلّون إلاّ كسالى، وينشطون حين يكون في الأمر وجاهةٌ وظهورٌ ومنصبٌ جديد، وترقيةٌ محسوبة الثمن، يتزوجون كل شهرٍ بكراً من بنات المـــسلمين ثمّ يطلقوها كحذاءٍ بَلِيَتْ، المشكلة أن أحداً لا يردهم حين يتقدمون، بأموالهم التي تتكاثر كل دقيقة يستطيعون اغراق الأهـــل بـــصيتهم وما لهم، البنت التي تطلّق منهم تبقى تفتخرُ أن فاتحهـــا كان الشيخ الفلاني!، لم أعد أستطيع احتمال كل هذهِ الخـــرافة، كـــلّ هذه الدوامةِ الغارقةِ في الدنيا والمتاعِ برداءِ الحقّ والخيريـــة، وجـــدتني أسألُ نفسي من أنا بالتحديد بينهم، هل أســـتطيعُ أن أكـــون نفـــسي!، هل أستطيعُ أن أسلك طريقي لوحدي، سيكون الموت بانتظاري ان تمردت، وهو ما أعيشهُ وأنا أبتـــسمُ كالأبلـــهِ في مجالسهم وهم يعلقون على مؤخرةِ أحدى المـــذيعات، بـــدلا من التعليقِ على ما غضبوا منه منها من آراء يقولون بأنها تمس العقيدة.

كنتُ أستمعُ لهُ في خشوعٍ غريب، كصرخةِ مخنوقةً تُغالب الخـــرس، وكحمامةٍ بيضاء في سربِ غربان، كانَ يتحدثُ وهو يتبلّع غُصَصُه الكثيرة بين كلمةٍ وأخرى، وراحَ يواصل حديثه:

أكـــرهُ شـــكلي هذا، أكرهُ هذه اللحية المنافقة، أكرهُ هذا المشلح، أكرهُ هذا الجمود والقالب الذي وضعتُ نفسي فيه، أريد

أن أنــــــزع كلّ هذهِ الأغلالُ عن صدري، أريدُ أن أستمع لأم كلثوم في سيارتي لا في السّر كلصّ كل ليلة، أريدُ أن أكون أنا ولـــو لمرةٍ واحدة في حياتي، أريد أن أقول للتي أحبها أنني أحبها أمـــام كلِ الناس، ولكن هيهات، فالأحلام شيء، والموت الذي أعيشه شيءٌ آخر.

اتـــصلتُ بعدها بساعاتٍ بزميلتي في المكتب وسألتها إن لا حظـــت أي شيء غريب، قالت لي لماذا لا تردين على مكالماتي اتـــصلتُ بكِ أكثر من مرة، جاء شابان ملتحيان يسألان عنك، قـــالا إنهمـــا مُرسلان من ضيفك الداعية، ويريدان تسليم بعض المواد الخاصة ببرنامجك الجديد.

بعـــد اغلاقي للهاتف حدّقت ملياً في عينيه، أيّ صدقٍ هو الحبّ هذا الصباح!.

بعدها اتصلتُ بوالديّ، وأخبرتهما أن لدي عملٌ مستعجلٌ في الـــسعودية، وأنني سأقيم في بيتنا لأكثر من شهر، وحصلتُ علـــى اجازةٍ من عملي وها أنا الآن أمامكِ، الماجنةُ التي وقع في غرامها الرّاهب!، شيءٌ عجيب أليس كذلك، أقصد كيف نفهم هـــذه الطبـــيعة البشرية، التي تستمرأ القسوة والاتهام بالفسوق، والتخطيء، واتهام الذات، وتجهيلها، وتخويفها، ثمّ يكتشف بعد فـــوات الأوان أنه لم يكن يخنقُ سوى نفسه، وأن سلطاته على المجـــتمع الـــذي قدسهُ كرمزٍ هي ذاتها أدوات استعبادهِ وبؤسه، مـــسكينٌ هو، شعرتُ كأنه يريد أن يغير جلدهُ بالكاملِ، كل ما

أحـــاط به نفسهُ من مثاليات أحاطت به، قال لي في آخر اللقاء "متى سأكف عنِ الاستمناء على صورتك كلّ ليله!"، أظنّه كان يعرضُ عليّ زواجاً بطريقته.

قلـــتُ لهـــا بأنني لا أزالُ لا أصدق، صحيح أن ريما كانت امرأة فاتنة، ولن يتورع الرجال عن تخيلها عاريةً كلما صادفوها في شاشاتهم، لكنّ هذا الشخص بالذات، صعبٌ أن يكون غير ما أراه، غـــير ما أعرفه عنه، كان بالنسبةِ لي رمزاً لزراعة الشك في المـــرأة ككائنٍ غير مأمون الجانب، ثم يقعُ في غرامِ ريما التي كلّ يومٍ لها عشيق، وكل يومٍ لها رأي يًسفّه الرموز الدينية والثوابت الـــتي يعتبرونها خطّاً أحمر، مازال عليّ أن أستوعب هذا في وقتٍ لاحق.

طوالَ الوقتِ الذي كانت تتكلمُ فيهِ عن كلّ شيءٍ لم تخبرني بـــهِ في زيارتها السابقة، كان اسمك كمنبّه أخافُ أن يدقّ وأنا لم أنم بعد، أخاف أن تأتي سيرتك فيكون لك معها أيّ شيء، فأنت الذي أخبرتني أن علاقتك بالنساء لا تخضعُ لشيءٍ سوى مزاجك، وأنّـــك صديق جيد للمرأة، يا الهي هل كل ذلك الودّ بينهما في الحلقةِ التي استضافته فيها يعني أن شيئاً ما حميمياً قد حدث خلف الكواليس!.

صداقتي لريما كانت بسبب غريبٍ يرفض قلبـــي الاعتراف بـــهِ بصراحه، كنت أوراب الهواجس كلما قاربت الحقيقةَ بمزيدٍ من الوهم، المرأةُ التي أصادقُها كي أحرسك منها، أبعدها عنك،

أبقـــيها في مكانٍ قصي عن حتى اسمك، قلت لها بعد أن جاءت ســيرتك ولا حظـــت حجم ارتباكي، وتلعثمي، "انه بليد مع النساء، لا يصلح حتى كصديق، لا يتحدث كثيراً، ويشعرك بملله بسرعه" كنتُ أكذب، ولكني بذلك كنتُ أحاول ابعادها عنك بكذبـــة، بلكمة، ببصقة، كل شيءٍ سأفعلهُ لإبعاد نساءِ الأرض عنك، ولتبقى حقيقتك وجمالُك لي وحدي بعدها.

قالـــت لي: لا أنتِ لا تعرفينهُ جيّداً لا تظلميه، إنه صديقٌ أكثر من حميم.

عندها فقط، وبسرعةٍ وعبرةٍ كنتُ أقاومها، طلبتُ منها أن تعـــذرني فـــأ لمٌ قـــويٌّ في بطني يمنعني من اكمال الجلسةِ معها، استأذنتها وسط استغرابها، وكنت أريدُ فقط أن أبكي.

لا أريد لأحدٍ أن يعرفك حتّى فما بالك أن يحبّك، كم عدد النـــساءِ الـــلاتي مرَّرت على نهودهنّ أصابعك، كم عدد النساء الـــلاتي أوصـــلنكَ إلى صرخةِ الانتشاءِ المقدّس، كم عدد النساءِ اللاتي أخذن نصيبيـــي من مائك، كم عليّ أن أبكي، وكم عليّ أن أقـــتل مـــنهنّ، وكم عليّ أن أتنهّد في طريقي إلى بيتي مملوءة بالحـــزنِ حدّ الانتحاب بصمت، أقلّب وجهي في شوارعِ جدة، التي كانت أحلى من عروسٍ وأنت معي فيها، ما بالها تمدّ لسانها شماتةً في وجهي، ما بالُ أضوائها تتشكّلُ على شكلِ وجوهٍ غارقةٍ في الضّحكِ والسخريةِ مني، ما بالُ الناسِ ينظرون إليّ ثم يرمقونني بنظرةِ شفقة، ما بالُ الطفلِ الذي يبيع البالوناتِ عند الإشارةِ لم

يلحّ عليّ هذه المرة أن أشتري، أتُراهُ يعرفُ أن الحزن في قلبـــي لا تسليهِ ألوانُ العالمِ ولا بالوناتُهُ؟!.

وحدهُ الحزنُ يغتصبُ وجهك بقوة، ويعبثُ بملامحك كلما حاولت ادعاء العكس، لماذا تحبّك ريما، ولماذا كنت معها حميمياً، ولماذا مازالتُ لم أفهم الدرس بعد؟!، أريدُ جناحين الآن، أريدُ أن أطـــير إليك، أريدُ أن أقف أمامك تماماً وأحدّق في عينيك لأرى أيّ الـــرجالِ أنت؟، أريد أن أرتمي بين أحضانك فموحشٌ هو العمـــر مـــن بعدك، وأريد أن أقتصّ منك في ذاتِ الوقت، أريدُ تقبـــيلك وضربك، أريدُ أن أقول لك بأنني اشتقت إليك، وأنها اللعنةُ عليك في ذاتِ الوقت، أريدُ أن أحطّم بقلبك غضبـــي هذا علـــيك، وحبـــي هذا لك، أريدُ أن أبكي لك وأُبْكِيكَ في نفسِ الـــساعة، أريدُ أن أبقيك هنا في داخلي أكثر "يا عبدالله" فمعك عرفتُ بأننا نحبّ لنعيش، لا نعيشُ لنحبّ، الحبّ وسيلتنا لتزيينِ ألمـــنا الذي هو الحياة، الحبّ وسيلتنا للتعلّقِ بجراحنا أكثر، الحبّ وهمنا الجميلُ الذي نَتدثّرُ به من صقيع الحقيقة.

** ** **

بعـــد عودتي ممزقة الأمل، مهشّمة الروح إلى بيتي، وجدتُ معاذ يحملُ لي خبراً سيئاً كمؤامرة يقيمها الحظ عليّ الليلة، قالَ لي إنّ والدهُجهّز له شقّة جديدة لتكون بيته وزوجته، وأنه سيأتي لأخذهِ الأسبوع القادم لإتمام مراسم الزفاف.

هـــذهِ المرّة لم أستطع اخبارهُ أن كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، لأنني أشعر أن حتى روحي ستنفجر، كل شيءٍ بات مخيفاً، وجـــودنا جمـــيعاً أصبح مهدداً، والغضب الذي في داخلنا جميعاً اقترب من مداه، نظرتُ إليه بحزن، وقلت، غداً سيكون لنا موعدٌ مع حقوقنا، لا تخف يا معاذ اقترب ما نريده، لكن علينا التحلي بالشجاعة، لنكون جديرين بالنصر.

أخـــبرته أنني سأوافيه لنسهر معاً بعد أن أرتاح، فالمنـــزل خالٍ من واجبِ الفراش لأبـــي حامد الذي يؤدي واجب العزاء بـــبريدة في وفاة جدي، وبذلك فلديّ وقتٌ للخلود إلى روحي ألملمهـــا من بعثرتك لها، وأغنّي لها ليطمئن قلبها، وأعدها بوعود جديـــدةٍ بدلاً من التي هلكت، وأنسج لها بيتا من الأحلام واهناً كوصلِك، ساخراً كرحيلِك.

أفـــتّشُ في غرفةِ أبـــي حامد، محاولةً أن اتناسى همّي بمعرفةِ من هذا الكائنُ الذي يزعجني بشخيرهِ وتخشّبِ عظامهِ كلّ ليله، أحاول ربطهُ بأي شيءٍ إنسانيّ، أي شيءٍ يشعرني أنه كان يوماً مـــا على قيدِ الحياة، أوراقُ معاملات تجاريّة، ومسابحٌ من كل شكلٍ ولون، وأكياسُ من الحناءِ لصبغِ لحيته، لديهِ مسجّلٌ يضعهُ باســـتمرارٍ على اذاعةِ القرآن الكريم، ولديهِ الكثير من الأدويةِ في دُرجـــه، تفوحُ منها رائحةُ السأمِ والضّجر، هكذا شعرت، ربما لأنـــني أنـــا التي أفوحُ بهما في تلك الساعة، حسناً ليس لديه أيُّ شيءٍ سوى هذهِ المتعلّقات، ليس لديه أي صورة، ولا قلم، ولا

كـــتب، ولا حـــتى تلفازٌ في غرفته، شاحبٌ جداً هذا المتخشّبُ بجانبــــــي، كمـــيّتٍ أعادوهُ رغماً عنه إلى الحياة، يسعلُ كثيراً، وتبرزُ ترقوته كلّما تمادى في السعالِ وتتسعُ حدقتاهُ بشكلٍ يرعبني حين أركز في وجهه أحياناً.

هُـــناكَ تحتَ طاولتهِ المقدسة التي يتناولُ عليها كأس الماءِ ودواءهُ وقهـــوته مع التمرِ كلّ صباح ثمّة حقيبةٍ سوداء، كنتُ شـــاهدتها بعـــد زواجي منهُ بفترةٍ وجيزة، أخذها ووضعها في خزنته التي لا يفتحها أحدٌ سواه، أغراني اخراجه لها قبل سفره لـــبريدة علـــى عجالـــة و لم يُعدها لمكانها أن أفتحها بقليلٍ من الـــتّوجسِ والخوف، فتحتُها، وجدتُ فيها ملابس امرأة قديمة جـــداً، عصابة الرأس التي كانت ترتديها النساء، وشالٌ أبيض شـــفافٌ يبدو أن بهِ آثار دماء، وكحلٌ قديم، وعلبةُ عطرٍ قديمة فارغة، وأعواد بخورٍ كنا نستخدمها في بيتنا حين كنتُ صغيرة، روائحُ موتى تنبعثُ بقوةٍ هذه الساعة، روحُ عجوزهِ تراءت لي كمن يرفضُ التدخل في خصوصياتها، شعرتُ بالغثيان أغلقتُها، وجلستُ بجانبها كمن يصمت دقائق عزاء على ميتٍ لا أعرفه، لكنّ رائحتهُ تضج بالمكان، احتفاظ أبـــي حامد ببقايا عجوزه الـــراحلة، هل يعني أنه يشعُر؟ يُحبها؟ يحنّ إليها؟ هل أزيد أنا علـــيهِ من اغترابه؟ هل احتفاظه بكل شيءٍ على حالهِ آخر ليلةٍ قضت فيها يعني أنه يريدُ ايقاف الزمنِ وحجر الرائحةِ والذكرى ووجهها في حقيبة؟، هل يعطيني هذا علامةٌ على أنه يحمل جانبا

انسانيا لم أستطع في ست سنواتٍ أن ألاحظهُ حتى؟، كيف لا نعـــرفُ بعضنا إلى هذهِ الدرجة؟ وكيف لا يستطيع أن يقول كلمـــة واحدة تعرّفك به أكثر؟، لم أره حزينا ولا ضاحكا ولا طروبا يوماً، دائماً كانت لهُ نفسُ الملامح، دائماً كان لهُ نفس الوجـــوم، دائمـــا كنت أعتقد أنه استيقظ ليموت، بقيتُ وقتاً أفكّـــر حـــتى دمها الذي كانت تخرجه من فمها – فقد ماتت بالـــسل – احـــتفظ بهِ على حاله، برائحته التي باتت مسكونةً بصرختها الأخيرة، بكلماتها الأخيرة، بتمددها الأخير، ياه كم هو متعبٌ أن تحبس روحاً في حقيبة، تزورها خلسة كل خلوة، تـــصبحُ مع الوقتِ حزينة تلك الروح أكثر، وفكّرتُ.. الروائح وحدها تعلقُ بنا من موتانا، تبقى كمقصلةٍ للذكرى في رقابِ الحزن، تعيدنا إليهم كلّما نسينا.

روائحُ الموتى، تذاكرنا التي لم تُقطع بعد، نحبّها لأنها تذكرنا بهم، وترعبنا لأنها تعني أن أحدا ما بانتظارك يريدُ أن تحمل معك إلـــيهِ رائحته، أحد ما أخذته تلك اليدُ الخفيّةُ، وقريبةٌ منك حدّ استنـــشاقك لهـــا، حين رحلت جدتي وكتكريمٍ لسجينةٍ قضت عمـــرها تـــنامُ في مخـــزنٍ ملـــيءٍ بروائح العته والفرش القديمة، والمـــنظفات، حصلتُ على ترقيةٍ من سجني، أصبح باستطاعتي الـــنومُ في ســـريرٍ وغرفةٍ مستقلة، صنعت أصلاً لشخصٍ محترم، كنتُ سعيدة بانتقالي من ذلك المخزن، الذي لا أملك له مفتاحاً، ولا يـــوجدُ به خصوصيةٌ من أيّ نوع، حتى من سخريةِ تراكمِ

الأشـــياء القديمة في البيتِ بجانبـــي كأنها تُخبرني أننا نحملُ ذات الجيـــنات، وذات المـــصير، كأنها تقنعني بمصيري النهائي، شيءٌ مُستعملٌ قديم، لم يعُد من اللائقِ اعادةُ استصلاحه!، ثمانُ سنواتٍ قضيتها بجانبِ خرائبِ بيتنا، أنامُ وأصحو كخطأ ما على أحدهم تجاهلـــه حتى لا يتفاقم، على أحدهم التغافُل عن وجودهِ حتى لا يُغفر فجأةً، وحين حملتُ أمتعتي للانتقالِ إلى حيثُ سريرُ جدتي، السريرُ الذي جاءها ذلك الخفيّ وأخذ روحها عليه، السريرُ الذي أسرّت له بنهايةِ الحكاية، السريرُ الذي تعلّقت بهِ رائحتها كعقوبةٍ للنسيان، كنتُ أجفل من رائحتها فيهِ كثيراً، أشعر بأنه خديعةٌ ما لاصـــطيادي من تلك اليد الخفية التي جاءت إلى هنا و لم أراها، تلـــك الـــيد الـــتي فعلت شيئاً غريباً هنا ولكنه بات مؤلماً حين رحلت، اليد التي اختلست شيئاً آخر لا نراه وهي الروح، كلّ ما بقي من جدّتي محفّزٌ جيّد لأشعر بأنني في سرير انتظارِ تلك اليد الخفية، في البداية كنت أنام بعينٍ واحده، وأتْرُك الأخرى لمراقبةِ تلـــك اليد النشّالة، رأيتُ مرّة خيالاً ما مرّ من أمامي، وأخرى رأيـــتُ نوراً سطع فجأةً في جدارِ الغرفة، قلتُ لنفسي إنها حتماً تتربّصُ بـــي، تعرفُ جيداً رائحة جدتي، وأنا أحمل تلك الرائحة الآن، أصـــبحتُ مثيرةً لها أكثر من غيري، فزعتُ من مرقدي، حـــدّقتُ جـــيّداً في ذلك الوميضِ الذي يأتي خاطفاً على الجدارِ المظلـــم، كنتُ سأصرخُ بها، ليس الآن، ما زلتُ لم أعرف الحياةَ بعـــد، ما زلتُ لم أتذوّق طعمها، لم أغادر سجني حتّى، كدتُ

أتوسّـــل إليها أن تدعني وشأني، وفجأة التفتّ إلى جانبـــي لقد كان وميض البطارية في هاتفي المحمول هو المسئول عن كلّ ذلك الفزع!.

مـــع الـــوقت أصبحت رائحة جدتي صديقتي، تآلفت مع رائحـــتي، و لم تعد تُشبه الموت، وأصبحت أمتلك غرفةً أستطيع فـــيها أن أغلـــق عليّ بابـــي، وأن أرقص مثلاً، إنه امتياز كبير بالنسبةِ إلى سجينة حسنةِ السلوك.

بعـــد أنِ اســـتعدت بعضاً من روحي، وبعد أن عاقبتُك في مخيّلتي، ثمّ عدتُ واقتصصتُ لك من نفسي واقهمتُها بالتقصيرِ في حبّك، في تذكّرك كما يجب، في وفاءِ حزني لك أكثر، نـــزلتُ إلى معـــاذ لنـــسهر ككـــلّ ليلةِ حتى الثالثةِ صباحاً كهاربينِ من العدالةِ، وكقطينِ في زاويةِ الزّقاق.

قال لي: إنني لم أعد أحتمل، يجب أن تفعلي شيئاً من أجلي، أن تعلمـــيني الحياة، وتشعلين روحي بالجمالِ والحلم، ثمّ تطلبين مـــني قتلها بيدي فهذه جريمةُ ربّما لا يُعاقب عليها قانون البشر، ولكـــنّ قانـــون القهر هو الذي سيعاقب عليها بقسوةٍ لم تتعلم الرحمة من قبل.

قلـــت لـــه: أعـــدك سأحاول بكلّ ما أملك من بؤس أن أســـاعدك، أن أرفع صوتي ليسمعوه، أن أصمد ولو لدقائق، لا يُمكـــن أن أسلّمك لحياة أرادوها لك و لم تخترها، ولن اسمح لهم بتدمير حلمٍ بنيناهُ معاً صرحاً، صرحاً.

مثّلتُ مع معاذ مسرحية "بارتلبيّ النّساخ" كنتُ أنا المحامي، وكان هو غُلامي غريب الأطوار بارتلبـــي، كنتُ أضحك وأنا أوجّـــهُ إلـــيهِ أمر نسخِ ورقة ما، وهو مزهوّ جداً حين يردّ عليّ بسمتٍ واثقٍ وغيرِ مُكترث "أُفَضّلُ ألاّ!".

وتـــساءلتُ معه هل نحتاجُ إلى اعاقة عقلية ما حتى نستطيع بقلبٍ جامد أن نقولَ لهم بأننا "نُفَضّلُ ألّا" نفضّلُ ألا نستمر في الخرس، نُفضّلُ ألا نطيع أوامرهم الديكتاتورية، نفضّلُ ألا نخاف مـــن عقـــوباهم الـــتي لا تنتهي، نفضّلُ ألاّ يسرقوا منّا وجودنا أكثر؟!.

كـــان معاذ حلمي الصغير الذي خلقتهُ بنفسي، بجُهدي، بالنوافذِ المعلّقة على ارتفاعٍ شاهق، بالفُسحِ الصغيرةِ بين كومةِ الواجـــبات، بالأمـــلِ الكفيفِ بين الآلام المُبصرة، بالهفواتِ الـــصغيرةِ في زحمـــةِ الجمـــود، بالحـــبّ يبحثُ لهُ عن أبٍ شرعيّ!.

معـــاذ الرجل البكر الذي لا يعرفُ أن حواء سبب سقوطِ آدم في حفـــرةِ الخطيئة، معاذ الرجلُ البكر الذي لا يُسمي خلود ســـوى جارتنا، ولا يبحثُ لي عن تراثٍ يُسقط باستمرارٍ قدرتي علـــى الكمـــال، لا يبحثُ عن كل ما من شأنه اثبات نقصي، اثـــبات عجـــزي، اثـــباتُ حاجتي إليهِ كعقدة ضعف غير قابلةٍ للعـــلاج، معـــاذ البكر الذي يُقدسُ الأنثى، ويراها رحم الحياةِ وسواها الموت، معاذ الذي يسميني في هاتفهِ المحمول "فينوس".

معاذ حلُمي اللذيذ، وسرّي اللطيف، الذي يزيدُ جمالاً كلّما بالغت في اخفائه عنِ العيونِ أكثر، وكأنّنا أدمنّا تشهّي ما خلْف الحُجب، لم يعُد الإعلانُ عن أفراحنا يُغري أحداً بمُطاردتنا.

أكـــتُب لـــك في ساعةٍ مبكّرةٍ من يومِ الخميس، وأقرأ لك رســـالة وصلتني في صندوق بريدي الإلكتروني، فأنا في الحقيقة وحتى اليوم لم أحصُل منك على رسالةٍ حقيقيةٍ بخطّ يدك، بتلعثم حروفك، بانسكاب بعض عرقك على الورقةِ تجعلها ندية بنكهةِ الحياة، لم يصلني منك سوى رسائل الكترونية، كل شيءٍ وصلني مـــنك كان افتراضياً، كان مصنوعاً، كان في خانةِ الشّك فقط، كتبت لي "سأبقى مخلصاً لقلمك أينما كان" أتُراهُ وداعٌ ما؟!، ثمّ إنـــي أكيدةٌ أنك بكل هذا التجاهُلِ والبلادة لن تكون مُخلصاً لسوى ألمي وجراحي، فقد أدمنك الهرب، أدمنتك الطرّق التي لا تعود، أدمنك الضلالُ الذي يستعذبُ ضياعهُ فيك أكثر.

قلـــت في رســـالتِك أيضاً أنّك "تُريد الاحتفاظ بجزءٍ منّي لتعيشهُ ولتتأمل الحياة فيه!" مُشيراً إلى رسائلي التي لا أتوقف عن كتابتها لك مع أنني لم أرسلها لك بعد، لستُ تُحفةً جميلة جزءٌ مـــنها يكفـــي لتأملها، جزءٌ منها يكفي هكذا بكلّ بساطة!، أنا طماعةٌ بك ولا أريد لأي جزء مني أن يصلك ما لم أكن أنا كُلي، أنا كلّي بهذا القلب الذي بات حملاً لا أستطيع تحمّل جوعه لك، لن أكتفي أنا منك بأي جزء، بأي نصيب، سأجادل الدنيا كلّها من أجل أن أحصل عليك كُلّك.

بدر يُرسل لي آخر رسالة كما يقول، مذكّراً إياي أن اليوم سيكونُ عرسه وسيكون للعرضةِ والزير والقصائد والأجساد المنتشيه في جرحهِ نصيب، والذئب الوحيد يضعُ لي ابتسامة وسؤال هل مازال محرماً على القدر أن يستجيب حينَ استجاب للشابي الذي شبعَ موتاً؟!، وحسين فقدتُ الاتصال به من فترة، ولونه في المحادثة رماديّ كغيابه، وخلود تقرعُ هاتفي بإلحاح لتطلب منّي أن نتناول الإفطار معاً في مكان نختاره فيما بعد، فلديها الكثير من أسرار الرجالِ المُنتصبين الجديدة!.

وتعبٌ يطرقُ جسمي، وعقلي، وبردٌ يسكن روحي، وخوفٌ أحاولُ تسليتهُ بالكثير من الخرافات، خوفٌ من القادم الذي أشعر بهِ وبهدير أقدامه في تجاويفِ ضياعنا المؤمن، ويغالبني النّوم الذي لن يخلو من كوابيسنا التي تأخذ نصيبها من نومنا أيضاً ومصيرنا معلّقٌ بقشّةِ مزاج لأحدهم، كلّنا رهنٌ للعبةِ الكراسي، كلّنا بما نعنيه من كائنات مؤجلة مرهونون ومربوطون بحبلٍ رقيقٍ واحد، أشعر بهِ ينقطع!، وسنسقُط، سنقتل بعضنا ارتطاماً بالحقيقة.

** ** **

بعد صلاةِ الجمعةِ كان والدُ معاذ واقفاً بالبابِ كقدرٍ محتوم، واجمينِ نحدّقُ إليه، قال بعجلة "ارتد أحلى ملابسك يا معاذ وتجهّز لعروسك اليوم عصراً سنملك لك عليها، جهّز معك ما

ســـتحتاجه لأسبوع بعدها سأحضر لك كل أغراضك من هنا وسترتبها لك زوجتك كما ينبغي"

احتبس صوتي في مكانٍ ما لا أعرفه، كنتُ أريد أن أرفض وان أنـــاقش هذا الأب ذا الوجهِ الغارقِ في التّجهم، وقبل أن أسترد أنفاس صمتي، قال معاذ "لا أريد أن أتزوج، قلت لك أكثر من مرة لا تعد إليّ، انساني كما فعلت منذُ ولدت، أنت لا تُشبهني، لم يعـــد بـــيني وبينك ما يمكن اصلاحه، أبـــي سأختار أنا أن أخرج من وصايتك، وسأخبرك أن كل حيلِك انكـــشفت، وكلّ تملقك وزعمك أنك تحبّني لم تعد تُجدي، أنت لا تُحبني، أنت لا تحبّ أن أكون عنصر عارٍ لك يوما ما، أن لا أســـي لأســـوار الفضيلة التي سيجتها حولي، لا تدعي أنك تحبني بعد اثنين وعشرين سنة من عمري معك هكذا فجأة "!.

قـــال أبـــوهُ بغـــضبٍ شديد: ماذا فعلتي بابني يا امرأة العزيـــز؟!، أتريدين اختطافه مني، ثلاث سنوات تركته أمانة عـــندك فقلبتـــيهِ ضـــدي، هل ضقتِ ذرعاً بعنةِ أبـــي أيتها الساقطة؟!.

نظـــرتُ إليهِ، ثم استجمعتُ قواي وصرخت بأعلى صوتي: اللعنةُ عليك يا مفتري.

جلس مع معاذ لساعةٍ وحدهُما يُريد اقناعهُ بفكرةِ الزواج، وأنهـــا ستمنحه الحب والأمان اللذان فقدهما بموتِ أمه، وحدهم

المنافقون يُكثرون من الحلف، كان طيلة وقته يحلف عليه ويحلف له أنه يحبه، في نهاية الأمر، خرج جارّاً معه كرسي معاذ المبهوت راحـــلاً بهِ إلى بيته/سجنهِ من جديد، متوعداً إياي بالقتل ان أنا فكـــرت يوما في مواصلته، كان يفتشُ أغراضه وغرفته، وينبشُ سعاداته الصغيرة، ويكسر عوده الذي أسماه معاذا باسمه من شدة حـــبه له، يردد طيلة وقته: لقد أفسدتِ عليّ ابني، ايتها الملعونة إياكِ أن تقتربـــي منه بعد اليوم.

أخـــذوا معـــاذا أيضاً يا عبدالله، سرقوا حلمي الجميل من جديد، سجنوا حريتي المُقعدة أيضاً، مضى يومانِ على رحيله من هُـــنا، قلبـــي منفطرٌ عليهِ كعطبٍ في كلّ حواسي، وحدهُ حزني الأبديّ يشعر، لا أستطيع معرفة مصيره، ولا التواصُل معه، هاتفه مغلـــقٌ كهاتفـــك أيضاً، اتصلتُ بأبـــي حامد يُجيرني وحفيده المـــسكين مـــن قسوة ولده، فكان كالموت لا تأثير له سوى أنه ذكرني بصف مفردات تبرير العجز وتديين الفشل، منذ تزوجته أصـــلا شعرتُ بأنني أضاجع جثّة، فكيف للأموات أن يشعروا بالأحـــياء، نقمتُ على الدنيا كلها وجئتُك أشكو إليك جزعي، فقـــدي الذي لا يتوقف، فقدي الذي يلدُ فقدا جديدا كل يوم، فـــراغاتي المملـــوءة بالضياع، الفجوةُ الشاسعةُ التي أعيشُها من بعدك، والتي أعيشها الان أكثر في فقد معاذ، ثمة حبل ما انقطع بـــيني وبين معاذ، ثمة صلة ما لم أعد أستطع وصلها، غاب كما جـــاء كحلـــم، لكن معاذ قوي، رغبته في الحياة ستعيده إليها،

ســـجنه سيكون سجنهم هم، أنا متأكدةٌ أن معاذ حلمي الصغير سيكبر، يوما ما سيكبر، يوما ما لن يُصبح سجنهم يتسعُ له، يوما ما سيحطّمُ غضبه سجنه، وسينتصر

** ** **

مضى اسبوعانِ على غيابِ معاذ، وثلاثةٌ على غيابك أنت، ابحثُ عنك في كتابِ الوجهِ فلا أجد معرّفاً باسمك أصلاً، أعودُ إلى ايقونتك في برنامجِ المُحادثةِ فأجدها مطموسةً بالأحمر، الجهةُ محظـــورةٌ، أرســـلُ رسالةً إلى ايميلك الذي حفظته كاسمي فيعيدُ الهوتمـــيل ارســـالها لي بعبارةٍ تقول "ليس هناك حسابٌ مسجّلٌ لديهم بهذا الاسم، أبحثُ عن صفحتك في التويتر فلا أجدها هي الأخرى، أشعرُ بخوفٍ شديد، بفزعٍ يشلُّ تفكيري، أكتب اسمك كأملٍ أخيرٍ في مُحرّك البحث فيكتبُ لي لا يوجد نتائج بحث بهذا الاسم، دوارٌ يعصفُ برأسي، ضياعٌ رهيبٌ يرمي بـــي بقوةٍ في اتجاهـــاتِ الكون، سقوطٌ سحيقٌ بلا نهاية، طنينٌ يصمّ أذني فلا أكاد أميّزُ مكاني وزماني الآن، كيف اختفيت هكذا كأنّك أصلاً لم تكن؟!، هل كنت موجوداً فعلاً أم كنت حلماً صدّقته أنا مع الوقت؟!، هل تسكنُ شامةٌ يدك اليسرى وتحسستها وقبّلتها يوماً أم أنـــا واهمةٌ؟!، هل رحلت أم إنها أنا التي رحلت، مَن منّا أقنع الآخـــر بكذبـــته أكثر؟!، لماذا لا أستطيعُ الوصول إليك؟، لماذا تـــسكنُ دمي ولا أتمكّنُ حتى من التّأكد من وجودك في مكانٍ

مـــا؟!، لمـــاذا أعـــرفك وأحبّك وأقيم فيك، ثم لا أستطيع رؤية وجهك، لا أستطيعُ العتب عليك، لا أستطيع الصراخ من أجلك، لا أستطيعُ الوصول إليك، لماذا تراكمت بيننا المسافات والوجوهُ والفجواتُ فلم تعد خطوط هاتفي تنبض بحرارتك، لم يعد ممكناً الهمسُ في أذنُك، أتُراك تفتقدني أنت أيضاً الآن، أتراك تُدرك كم هـــو صعبٌ أن تبحث عن شخصٍ تشك في وجوده أصلاً، في عقلـــك، في قلبك، في كلّ شيءٍ مزيّفٍ حولك، تبحثُ لك عن ســـبب لغيابه، عن سبب لاختفائه، عن من حملوهُ على الرحيل، عـــن مـــن رَحَّلُـــوا روحك معه، أين أنت الآن، وأيّ صراخٍ سيًـــسْمِعُك، أي حجرة تستطيعُ وصف كلّ هذا الحرمان، كل هذا الفزع، كل هذه الدهشة، كل هذه الفجيعة، الخرسُ وحدهُ قادرٌ على وصفِ كلَّ شيء، الخرسُ وحدهُ قادرٌ على الكلام!.

ربّمـــا نلتقـــي في حلمٍ آخرٍ يوماً ما، ربّما اعتلينا صفحة السّماءِ لنقبّل بعضنا، ربّما جادتِ الأوهامُ علينا بيومٍ آخر، ربّما أعـــادوك لي، ربّما عدت من نفسِك، ربّما مررت يوماً من أحد الأرصفة اللندنيةِ التي تبيعُ الكتب المستعملة، ووجدت امرأة ممزقة الثيابِ موشومة بالتعب تعرضُ عليك كتابـــي كهديةٍ مجانيةٍ مع كـــتاب آخـــر، ربما فكّرت أن تتصدق عليها واشتريته، لذلك ســـأحرصُ على نشرِ رسائلي إليك في كتاب، علّ الرياح تحملُ إليك بعضاً من أوراقي، علّ الحظّ يوقفك بأحد المقاهي العربيةِ في لندن لتقرأ أنني كتبت رسائلاً لم أجد صندوق بريد لأرسلها لك،

لم أجد وسيلة توصِلُني بك، فأفشيتُ أسرارها ليصلك منها ولو سرٌّ واحد، رسائلي / صوتي المخنوق الذي ناديتك به فلم تسمع، أنـــت بعـــيدٌ بما فيهِ الكفايةِ لأن لا تسمع، وهاتفك مقطوع من الخدمـــة، لـــذا سأتآمر مع دورِ النّشرِ على الصراخِ معي، على المحاولـــةِ معي للوصولِ إليك، علّك تقرأني يوماً ما، علّك تبتسِم وأنت تقرأ، علّك تتذكّرُ وانت تتذكّر!.

اليوم أتصل بـــي مُعاذ، بكى كثيراً، أخبرني أنه يُحبني، وأنه حين وجد أن الأصوات كلّها محسوبةٌ عليه جرّب صوت القلم، صوت الكتابة، معاذ يكتب روايتهُ الأولى يا "عبدالله"، وعدني أن أكون أوّلُ من يقرأها.

دارُ النّشر وعدتني بإفشاء أسراري، ورسائلي إليك بقدرِ ما تستطيع، أحدهم سيحملُ إليك وشاية يوما ما، سأشكر الوشاية والواشـــي لأنهما استطاعا الوصول إليك ولو بسوء نيّة، الوصول إليك هو كلّ ما أريد، طرقُ بابِ مسامعك هو ما اضطرني لنشرِ رســـائل خاصـــة جـــداً، حين تصلُ إليك، أرجوك لا تتردد في الاتصال بـــ "ريم" التي كوطنها تجلسُ على قارعةِ الانتظار.